تَعوِيذَة بَابِ زِوِيلة

«المهدي المنتظر الخطأ»

رواية

فتحي محمد

OKTOB.NET

إلى روح جدي الغالي..أرجو أن يصلك دعائي ومحبتي وأدعو الله أن يسكنك في الجنة وأن يغدق عليك مزيدًا من رحمته وبركاته.

إلى أبي،

وإلى أمي كي تبتسم دومًا،

وإلى أختي سارة كي تزداد جمالًا،

وإلى أخي يوسف كي أزداد أنا حبًا فيه،

وإلى عائلتي الصغيرة في بيت جدي رحمه الله،

وإلى عائلتي الكبيرة التي تشاركني شغف القراءة قبل الكتابة.

إهداء

إلى كل من ماتوا من أجل شيء ما،

وكل من ماتوا ليكتمل لنا الطريق،

وكل من ما زال هنا حيًا وسط كل هذا العبث،

إن راودتك فكرة أن تبتعد وتسافر وتنهي حياتك ومعارفك هنا،

وتبدأ من جديد، عزيزي لا تتردد، فهي حياة واحدة،

افعلها إن استطعت.

يمكن أن نسمى تلك المقدمة

عزيزي!

حامل الكتاب أو حتى متصفحه بصيغة (PDF)، إذا كنت حصلت على هذا العمل بطريقة شرعية أو حتى غير شرعية دعنا نتحدث على انفراد لدقيقة احضر فنجان قهوتك واتبعني إلى الطاولة، آسف لأنني لن أدعوك إلى فنجان؛ لأننا فقراء كما ترى.

دعك من كل هذا الهراء واسمعني لحظة.

عزيزي!

كل المعلومات الواردة حقيقية أو بها جزء من الحقيقة ولكن أنت تعرف – أو لا تعرف – أن هناك ما يعرف بالحبكة الدرامية، أو إدخال شخصيات وتحديد سلوكها فيما يتماشى مع خيال الكاتب وحبكة النص، أو سأختصر كل هذا في جملة واحدة قديمة:

عزيزي القارئ!

«المخرج عاوز كده».

على أية حال، أكمل قراءة الكتاب إن كنت لم تمل من المقدمة وألقيت الكتاب بعد، وحاول أن تجوب بعقلك داخل كل الأفكار فيه.

وبالمناسبة، سوف أترك لك عنوانًا إلكترونيًا للمراسلة إن احتجت

أن تتناقش في فكرة قد وردت هنا، أو حتى أي فكرة تجوب العالم في الخارج، أو على أقل تقدير لتوجه لي بعض السباب بما يعادل مالك الذي دفعته ولم يعجبك الكتاب وإن كنت قلقًا حيال مالك بالمناسبة أعد الكتاب مكانه فالقارئ مغامر بالأساس يا عزيزي!

لدي عمل مهم الآن اغسل فنجان قهوتك عند الانتهاء ثم ارحل أيها الغريب الذي أتى هنا صدفة.

* * *

الفصل الأول

«لم أجد اسمًا مناسبًا لهذا بعد فتركته خاليًا»..

كنت أود أن أكتب أبياتًا من الشعر هنا لكنني لم أجد شيئًا مناسبًا وما وجدته سيكون سخيفًا فتركت لك الصفحة فارغة في الأسفل فأرجوك املأها بأكثر أبيات الشعر قربًا إلى قلبك وحاول أن ترسلها إلي إن استطعت.

إيرينا عنان

مثلما تبدأ أي فتاة يومها بمحاولة فك تلك المنازعات بين خصلات شعرها الأسود، ثم تحكم حجابها فوق رأسها وتنزل خمارها على ذلك الجلباب الواسع الذي يخفي جسدها النحيل، يخفي ذلك الملاك الجميل لا يظهر منه سوى وجه دقيق صاف كينبوع مياه وحيد في الواحة، وعينين عسليتين واسعتين، وأنف دقيق، وفم باسم باستحياء.

بيت طيني مكون من طابقين يحمل غرفتها في الأعلى، وفي الأسفل الحظيرة تحتوي على مواشٍ من أغنام، وأبقار، وجمل وحيد، وحصان، وبعض الدجاجات. تنزل بهدوء عن الدرج مع صوت أمها التي تناديها في تكرار رتيب مزعج :

- إيرينا! أين أنتِ يا فتاة؟ انزلي الآن حالا، إيرينا! إيرينا!

- نعم يا أمي!

- لمَ كل هذا الوقت؟ لقد برد غداء أبيك.

- آسفة يا أمي! أنا ذاهبة حالًا.

حملت الصينية التي تحتوى على طبق به بيضتان، وكوب لبن، وخمس تمرات، وماء، وتهادت في خطاها نزولًا إلى البلدة نحو الحقول.

«عنان بن عثمان بن طه»..

ذلك الرجل شديد الطيبة بلحيته البيضاء، عاري الجذع، يلبس بنطالًا واسعًا ويلف إزارًا يغطي حتى منطقة السرة، ممسكًا بالمنجل، ويقطع سنابل القمح من الأرض في دقة عالية وخفة لا تتناسب مع كبر سنه.

- نادته يا أبتي!

- نعم يا بنيتي!

وضع المنجل جانبًا والسنابل، وجلس عاقدًا ساقيه أمام صينية الطعام المغطاة بمنديل أبيض وأزاحت المنديل وهي تبتسم وتقول:

- تفضل يا أبتي هذا غداؤك.

- اجلسي يا إيرينا! أريدك في أمرٍ هام.

- خير إن شاء الله يا والدي؟

- خير بإذن الله، لا يريد بنا الله إلا الخير، هناك من تقدم لخطبتك اليوم.

- لخطبتي أنا؟

- هل لدينا بنات غيرك هنا؟ إنه «ياسر بن عبادة»، سادة قريتنا وكبير التجار.

- ولكن يا أبي أنا لا أحبه، كما أن لديه زوجتين.

- لا تحبينه!، وأين تعلمتِ الحب هذا؟

- تحكي لي أمي عن رسول الله وحبه لخديجة، أريد رجلًا يحبني مثل رسول الله، ورجلًا مثلي لا يريد سوى زوجته فقط.

- وهل أنتِ مثل خديجة؟ اذهبي إلى البيت ولا تبرحي غرفتكِ حتى آتي إليكِ، لأرى ماذا خرفت أمكِ، وماذا جنت ثمرة تربيتها فيكِ؟ اغربي الآن من أمامي.

ذهبت وقد احمر وجهها من الغضب لا من الخجل، ماذا فعلت حتى يغضب والدها هكذا ولم تقل غير أنها تريد رجلًا مثل رسول الله، هل هذا خطأ؟ خديجة لم تكن من السماء أو لم تكن نبية حتى كانت امرأة عادية مثلها أحبت رسول الله كرجل وأحبها كأنثى.

وجدت باب الدار مقفولًا دون عارضة، أمها عند الجيران كعادتها، صعدت إلى غرفتها وفكت خمارها وخفت من ملابسها ثم أخفت الباقي من أفكارها في وسادتها وذهبت في نوم عميق لم يوقظها منه إلا صوت أبيها العالي مناديًا، «إيرينا»! أيتها الحمقاء! انزلي.

- أحدثكِ أمام أمكِ، لقد خطبكِ اليوم «ياسر»، والعرس بعد عودته من بلاد الحجاز، أي: أمامكِ شهران أو ثلاثة على الأكثر لتستعدين للزواج.

- أبي لقد قلت إنني لا أريده، لم أعهدك قاسيًا معي هكذا من قبل.

- ماذا تريدين؟ رجلا مثل رسول الله؟ ونعم بالله وبرسوله لكن مَن منا اليوم متل رسول الله؟ مَن في بر مصر أو في الخلافة مثل رسول الله؟ ثم إن «ياسر» زينة الشباب وتاجر كبير ولديه المال الوفير وسنعيش في حمايته. لقد كبرتُ الآن ولم أعد أستطيع دفع الضريبة أو العمل مثل السابق، لا أقسو عليك بنيتي، أنتِ قرة عيني وليس لي صلبًا سواكِ، وأخشى ما أخشاه أن أموت دون أن أزوجكِ وتضيعين أنتِ وأمكِ من بعدي.

ارتمت إيرينا في حضن أبيها عند ذكر الموت.

الموت أي موت؟ لم تفكر يومًا أن أباها قد يرحل، لم تعرف عائلة غيره بخلاف كل من تعرفهم لديهم نسب كبير وعزوة ولكن هم هنا وحدهم.

لم يخرجها من حضن أبيها سوى نباح الكلاب، نباح لم تعهده «إيرينا» من قبل ولا أبيها، وقد زعرت له حيوانات الحظيرة فهرعت هي وأبيها وأمها إلى الحظيرة يتفقدون ماذا فعل اهتياج الحيوانات بها إلا أن ارتجاف الأرض بعيد فور فتح الباب، وخرج الحصان مسرعًا صوب الباب قاذفًا بـ«إيرينا» خارجًا وهي تصرخ وعيناها على أبويها حيث سقط السقف بعوارضه السميكة عليهما، فهل سمعها؟ لم يحدث هذا منذ زمن بعيد، انهارت نصف بيوت القرية ومات ثلث سكانها.

بالنسبة لـ«إيرينا» قد ماتت كل عائلتها وتركوا الصغيرة مع حظيرة ماتت حيواناتها، وبيت مهدوم وصومعة فارغة،وحصان

جريح، ونصف محصول قمح يجب أن يجمع وثلاثة دنانير ذهبية.

في الصباح التالي ذهبت إلى قبر أبويها وقرأت الفاتحة ودعت لهما وكادت تنتهي سمعت مواء قط قريب كأنه يتألم، فبحثت عنه فوجدته عالقًا في حفرة بشكل قريب كان نصفه السفلي مدفونًا وكان حجر وقع عليه، جلست تحفر برفق بيدين ناعمتين حتى أخرجته ولمحت شيئًا ما يلمع بالصفر تحت ضوء الشمس الشديدة في ذلك اليوم وأكملت الحفر حتى وجدته غلافًا مزركشًا برموز غريبة لكتاب ما لا يحمل اسمًا ولا تعرف هي من أين أتت الرهبة والرجفة في قلبها؟ وبمجرد أن أمسكته بيديها أخفت الكتاب في ملابسها، وهي لا تعرف لم تفعل ذلك؟ وعادت مسرعة إلى البيت أو دعونا نقول شبه البيت الباقي، حيث دخلت إلى غرفتها في خطى معتادة وأنزلت خمارها وفتحت الكتاب.

بعض الكلمات عربية، لكنها غير مفهومة يعلوها جملة وحيدة واضحة

«اقرَئني عند منتصف الليل».

ومكتوب بخط أصغر تحتها «مرة للجالس ومرتين للذاهب».

لم تكن تفهم ما يحدث ولكن كل تلك الأحداث قد أثرت في جسدها الضعيف وجعلت النوم غالبًا لها فذهبت في ثبات عميق.

يوسف

يبدأ الاستحمام، يبدأ الناس عادة بكوب شاي، ثم الاستحمام، ثم الخروج لمواجهة الحياة أجل مواجهة الحياة، أنت تعيش في القاهرة في عام 2011.

ضرب التضخم السكاني الدولة منذ عقود، نقص حاد في الخدمات يطاردك في كل مكان.

يترجل عبر شارع طويل يسمى «خمارويه» على اسم أحد سلاطين الطولونيين في مصر، والبعض يقول على اسم أحد الأعيان في عصر «محمد علي»، هذا حقا لا يهم لو كانا موجودين الآن لتبرآ من هذا الشارع المزدحم، ينعطف يمينًا في شارع شبرا يمر عبر الكنيسة الكبيرة التي طالما ينسى اسمها لضعف ما في ذاكرته تجاه الأسماء، ويمر بسرعة بجانب قسم شبرا خوفًا من تحرش السادة الأمناء، أو الضباط، أو حتى العساكر به، فهذا الأمر أصبح شائعًا في مصر تحت بند تشعر أنه شبه قانوني يسمى «الحالات الفردية»، ولكننا لن نتطرق لهذا الأمر حتى لا نضع أنفسنا تحت طائلة هذا البند.

بعد دقائق معدودة على أصابع اليد الواحدة يصل إلى مقصده.

لا. الأمر ليس كما تصورت الآن، لا رحلة تنتهي في القاهرة بتلك السرعة هو فقط وصل إلى خط البداية، محطة مترو «سانت تريز».

الدرج إلى شباك التذاكر أعطى الرجل جنيهًا قديمًا فحرك الموظف يده في رتابة وملل وناوله التذكرة على فوهة الشباك عبر الماكينة الإلكترونية التي لا تعمل بشكل صحيح كليًا وأخذ الاتجاه الهابط إلى الرصيف خط «الجيزة - شبرا» استقل القطار القادم، أو بمعنى أدق جعله الجمهور يستقله.

إن كنت لم تزر القاهرة بعد أو لم تركب هذا الاختراع أهنئك بشدة أولاً ثم دعني أصف لك الوضع، هنا كل شيء آليًا يدفعك الزحام إلى

الرصيف ويتوقف عند حافته وعندما يأتي القطار يفتح الأبواب، لن أصف لك الروائح الناتجة عن هذا، لكن الزحام يتحرك بك من الخارج إلى الداخل وزحام آخر من الداخل إلى الخارج خلال تلك العملية الفيزيائية المعقدة، ستجد نفسك أخيرًا بين أحضان أحدهم داخل القطار، ينتظر في ضجر ممزوج ببعض التعود مرور ثلاث محطات حتى يضع نفسه على خط الزحام النازل إلى محطة «مبارك»، كنقطة ارتكاز للكون، كذلك تشعر وأنت بها بكم هائل من البشر يسرعون في كل اتجاه، إن وقفت لحظة ستكون تحت أقدامهم، عليك أن تجاري الزحام حتى وان كان على خطأ، أو أنه ليس طريقك، فقط جاري الزحام وعد من النهاية الأخرى.

جلس عند مقدمة الرصيف في ملل ممزوج بالحماسة سيلتقي اليوم «سلمى».

دعني أحكي لك نبذة عنها حتى تصل، أظن أنها ستتأخر، تلك عادتها.

«سلمى» زميلة قسم الفلسفة في كلية الآداب من أشهر طلاب القسم، لا يرجع هذا لمنصبها في عضوية اتحاد الطلاب، ولا حتى في عملها في الأنشطة الطلابية الكثيرة، ولا حتى أنها تمثل أكبر المكتبات التي تصنع الملازم للطلاب، ولكن في الحقيقة تعود شهرتها تلك ويعود كل ما سبق هذا إلى جمالها الصارخ ممشوقة القوام، عسلية العينين، شعرها القصير بالكاد يلامس كتفها، ملابسها التي دائمًا تتأرجح في منطقة ما بين الإثارة التي هي بلا عري والحشمة التي لا تخفي هذا الجسد الذي يشع بالأستروجين.

علاقة «سلمى» منفتحة مع الجميع «هي ليست مرتبطة بأحد وفي الوقت ذاته ليست وحيدة، الأمر يبدو لك معقدًا، ولكن إن كنت مررت بمرحلة التعليم الجامعي ستفهم قصدي دون شك.

حتى «يوسف» لا يفهم ما يحدث، كيف وجد نفسه هنا، بالكاد تبادلا أول محادثة لهم أمس ليلاً على «yahoo mail» قال كلمات معدودة، ثم ذكر لها شيئًا عن قسم آثار وعن شارع ما قديم عن قاهرة الفاطميين فوجدها تحدد موعدًا وأنه غدًا سيصحبها مع أصدقائه، يشعر أنه تورط في الأمر لكنه سعيد.

وها هي «سلمى» تأتي واثقة الخطى تتهادى في مشيتها، فيهتز قوامها، فتشق أمامها زحام الناس المكتفين بتتبعها بأعينهم فقط.

أنا الراوي،وقد مللت من الكتابة لذلك سأدع «يوسف» يكمل لكم، وداعًا!

* * *

- أخيرًا.

- آسفة والله يا «يوسف» الدنيا زحمة موت فوق والطريق كان واقف في المعادي أوي وأنا جاية.

- يا ستي ولا يهمك، يلا بس عشان نلحق الناس.

- قولتلي ننزل محطة العتبة أوف المترو زحمة أوي النهاردة.

- طيب بصي في عربيات من فوق ممكن نركبها بس نتمشى شوية بعد ما ننزل منها.

- ماشي ارحم من العذاب ده أكيد.

- أوكي يلا بينا.

«لو كنت أعلم خاتمتي ما كنت بدأت»..

كان «يوسف» يدندن هذا بينما «سلمى» لم تجد حرجًا في أن تمسك بذراعه محتمية بجسده العريض ذي العضلات.

- طيب بصي كده في حل وحيد.

- ها اطربني عشان اليوم قرب يقفل قبل ما يبدأ.

- هنادي تاكسي ورزقي ورزقك على الله.

- الحساب بالنص.

- لا عيب أنا عازمك ونادى «تاكسي» بصوت ركيك مازحًا.

الأمور لا تسير هنا هكذا ربما لو كنت في باريس أو لندن لكان الأمر هكذا، لكن هنا سيتوجب النزول من على الرصيف لقلب الشارع و التفاوض مع السائقين عسى أن يقبل أحدهم أن ينقلك، ولكن لحسن الحظ جمال «سلمى» كان كافيًا بأن يتوقف أول سائق لهما، والموافقة دون الخوض في التفاصيل الروتينية تلك.

- على فين يا باشا؟

- شارع المعز.

- أيوا فين شارع عزوه ده.

- لا. المعز، بص يا أسطى نزلني الغورية لو سمحت.

- أيوه الغورية كدة عرفنا يا هندسة.

التفت «يوسف» إلى «سلمى»:

- مبسوطة؟

- أيوه أنا بحب الخروج وكمان رائحة مكان جديد مع ناس جديدة.

صدمتني آخر جملة ربما توقعتها «رائحة مكان جديد معاك» بس يلا أنا والناس واحد.

توقف التاكسي أمام الغورية وسط زحام مريع وأخرج هاتفه المحمول.

- الووو.

- «يوسف» فينك؟

- «مصطفى» أنا في الغورية دلوقتي، امشي إزاي؟

- اسأل أي حد على باب زويلة إحنا واقفين تحت الباب هو دقيقتين من عندك.

- خلاص أوكي، سلام!

- سلام!

تفحصت وجه المارة أحاول أن تقع عيني في عين أحدهم حتى أسأله، الرجال يمشون في سرعة غريبة هنا.

- لو سمحت ياسطى.

- أؤمر يا باشا.

- أروح إزاى باب زويلة لو سمحت؟

- حضرتك تدخل الشارع ده وامشي للآخر ولا تدخل يمين ولا

تدخل شمال هتلاقيه في وشك علطول.

- تشكر يريس.

- الشكر لله يا باشا.

كانت «سلمى» قد استسلمت لعادتها في تصوير أي شيء، فقد أخرجت الكاميرا الديجيتال من محبسها وبدأت في التصوير.

- ابنتي بتعملي إيه؟ يلا الناس واقفين علينا.

- همشي إزاي؟

- من هنا، مد يده على شارع الغورية واكتشف أنه لا يرى الشارع، فقط واجهات الدكاكين ورؤوس بشر.

- همشى إزاي يعني أنت مش شايف الزحمة؟

- بصي أنا همشي وأنتي متسبيش الشنطة بتاعتك ونمشى زي القطر أوكي.

- أوكي يا فيلسوف عصرك يلا.

وبدآ في السير مرورًا من أسفل مسجد قنصوة الغوري يشق الزحام بكلتا يديه مرددا «لوسمحت»، «بعد إذنك»، بينما يبدو أن لا أحدًا يسمعه وتقوم يديه بالمطلوب وبعد مسيرة سنة ونصف أو هكذا تبدو وصلا أخيرًا إلى تلك البوابة الضخمة ذات السمعة السيئة وتحتها حشد مكون من قرابة الخمسة عشر شخصًا.

«مصطفى»:

- صاح «يوسف».

- إزيك يا «يوسف»؟ كل ده؟

- آسف، والله الطريق صحيح معرفتكش «سلمى» مشيرًا إليها.

- أهلًا بيكي.

- أهلًا «مصطفى»! آسفين على التأخير بقا.

- ولا يهمكوا، يلا عشان هنبدأ.

بدأ «مصطفى» في سرد أحداث تاريخية تخص تلك البوابة الضخمة، وبدؤوا في الصعود إلى البوابة من خلال السلم، وعلى السطح أعطاهم جولة حرة.

- «مصطفى».

- إيه يا «يوسف».

- هي المأذنة دي ليها سلم من جوا؟

- أيوه. أنت جيت هنا قبل كدة؟

- لا والله مجتش، بس فاكر إنى طلعت السلم ده قبل كده وإن في حاجه فوق مش فاكرها.

- إيه ياعم شغل الأفلام ده؟ عمومًا آه في سلم، بس مفيش حاجه فوق السلم ده علشان المؤذن كان بيقف فوق زمان يأذن في الناس علشان يسمعوا.

- طب ينفع أطلع؟

- لا طبعًا، ممنوع.

- محدش واخد بالوا.

- براحتك، أنا حذرتك.

- أوك. ملكش دعوة أنت.

أشعلت كشاف هاتفي وبدأت في صعود السلم، عالي جدًا.

الهواء ثقيل هنا ويحدث صفارة في الأذنين ولكن الأفكار لا تكف عن التوارد في عقلي حول نهاية السلم وعارضة خشب مكسورة.

وصلت فيه إلى مكان وجدت خشبة داخل الحائط.

لا يمكن أن يكون هْذا مكانها، الأفكار لا تكف عن التوارد.

أحدًا ما يخبئ شيئًا هنا، لا أعرف من هو؟ ولا أعرف ذلك الشيء.

ارتفع ضغط دمي كثيرًا أشعر باختناق أضرب بيدي الحائط.

أصابت يدي الخشبة، فتألمت. أجل، هناك كيس من القماش بالداخل فتحت عيني فتوقفت وتوقف دوران الكرة الأرضية كلها، سحبته ببطء ونظرت داخله هناك كتاب فتحته فقط عدة أسطر فقط في صفحة واحدة، عنوانها: (اقرئني عند منتصف الليل).

يدس الكتاب في الحقيبة ينزل مذعورًا لم يجد أحدًا أسفل المأذنة لقد ذهبوا إلى الغرف الأخرى، يسرع الخطى نحو الخارج، ينزل ويخرج من بوابة زويلة، تاكسى، شبرا ياسطا.

- ألوو «مصطفى»!

- إي يا «يوسف» فينك؟

- لا أنا مشيت في مشكلة في البيت فآسف مشيت بسرعة.

- في إيه يابني؟ أجيلك؟

- لالا. بسيطة، هكلمك لما أوصل.

- أوك. سلام!

لا أحب الكذب أبدًا ما الذى يحدث، الأرض تدور بسرعة، أو أعاني أنا من خلل ما، أفقت على صوت جهور يحدثني.

- فين في شبرا يا أستاذ؟

للحظة عادت ذاكرتي أنا في التاكسى وهذا الرجل ينظر إلي بجانب عينه، أعتقد أنه يظن أني مخبول ولكن لا يهم الآن.

- عند محطة سانت تريز، شارع شبرا يا أسطى.

- تمام يا باشا.

مرت الرحلة في يوم، أو سنة، أو لا يهم إطلاقًا، أنا هنا أمام البيت أصعد الدرج وأنا ألتقط أنفاسي بصعوبة.

أدرت المفتاح في القفل، وأغلقت باب غرفتي، ورميت الحقيبة على السرير، وجلست على الأرض، لا أقوى على الحراك، أحاول جذب المزيد من الهواء داخل صدري، أحاول ألا أفقد وعيي الآن، عيني ثابتة على الحقيبة، والأرض حولي تدور لم أشعر بنفسي إلا في التاسعة مساء، كنت على الأرض والحقيبة أمامي وعليها هذا الكتاب الغريب كنت مستندًا إلى السرير، لو مت هنا لما شعر بي أحد، تقريبًا «مصطفى» فقط مَن كان سيشعر، وذلك في ميعاد لقائنا الأسبوعي وليس قبل ذلك.

كم أشتاق لوالدي الآن! منذ سنتين تركني، أجل. تركني هنا وذهبوا إلى رحلة قالوا: لن تستغرق إلا يومًا مع أصدقاء أبي في

البنك، الجميع عاد إلا هم، قالوا: حادث، المهم أنهم رحلوا، تركني وحيدًا مع عائلة أب مفككة وعائلة أم في سوهاج انقطعت أخبارهم وأخباري منذ سنة، ربما كنت الآن جالسًا أمام مكتبة في الغرفة المجاورة متمالك نفسي بعض الشيء وأحكي له، بالتأكيد لم أكن لأشعر بكل هذا الضياع والارتباك، لا أعلم في ماذا وضعت نفسي هذا الصباح؟ وجدت نفسي أمام دفتر مذكراتي ولكني لا أكتب، أنظر له في أمل أن يخبرني لكن ماذا سيخبرني دفتري الذي عمره الآن عام تقريبًا؟ هو بلا روح لن يشعر، تركته ودخلت المطبخ، كوب كبير يحتوي على أربع ملاعق بُن ثقيل سيحل المشكلة، ليس كليًا لكن على الأقل سيعيد لي بعضًا من تركيزي.

عدت إلى دفتري، وكتبت، ربما تساعدني الكتابة على التفكير، مذكراتي العزيزة التي طالما لا تفهمني اليوم هو العاشر من يناير، عام 2011، وسط كل هذا الزحام الخانق في القاهرة، اختارني وسواس غريب، اختارني وحدى؛ لكي يهدي إلي كتابًا لا أعلم محتواه حتى الآن، تلك المغامرة الجميلة والرائعة لشخص مغامر لكن هذا المغامر ليس أنا بالتأكيد ولقد أخطأ هذا الوسواس الغريب الشخص، هل هذا سحر أم مجرد كتاب بلغة أجهلها؟ «اقرئني عند منتصف الليل» كيف أقرءك وأنا لا أفهم؟ مذكراتي العزيزة تبًا لكي مجدًا وسحقًا، لكل مرة أحاول أن أفكر فيك ولا أصل إلى جواب، استغرقت كتابتي وقهوتي ساعة لا أعلم كيف مرت، الآن هي العاشرة؟ أغلقت هاتفي وضبطت المنبه على الثانية عشرة إلا ربع، ولبست ساعة يدي حتى لا يهرب مني الوقت، وقررت إغراق نفسي في

بعض الشيتات التي ستسلم في الجامعة الأسبوع القادم، رنين المنبه أخرجني من تركيزي وأعاد إلى ذاكرتي كل ما حدث في هذا اليوم بما في ذلك هذا الكتاب الغريب، أغلقت كل شيء وجلست أتفحص غلافًا أسود مزينًا بحروف عربية مزخرفة بالذهب أو هكذا تبدو صفحة وحيدة في منتصفها «اقرئني عند منتصف الليل» وأسفلها سطر بخط صغير لم ألاحظه من قبل «مرة للجالس و مرتين للذاهب» ما زلت لا أفهم ما يحدث أو ما هو مكتوب تفحصت بعيني الكلمات وجدت بعض الكلمات ذات معنى عندي «موضوعات» أي موضوعات تلك «به» لا أفهم الساعة الآن الثانية عشرة بدأت في الترديد:

«به نام خالق اين جهان، و بافته شده از موضوعات زمان و مكان، من را به جايى كه اين كتاب در حال حاضر منتقل».

لم يحدث شيء فتذكرت السطر الصغير، فعدتها ثانيًا فلم أرَ حولي ظلامًا في ظلام، أغمضت عيني خوفًا فازداد الظلام ظلامًا.

فتحت عيني على صوت تنفس عالٍ متحشرج فوجدت مصباحًا قديمًا ينير غرفة مظلمة، وشيئًا ما يتحرك أو يرتعش في الظلام، تجمد الدم في عروقي، ويرفض عقلي العمل، وكذلك كل عضلاتي لا تستجيب، أسترجع مشاهد السحر والأشباح التي مرت في حياتي والتي كانت جميعها من مشاهد أفلام عربية ركيكة أو أجنبية مرعبة، ماذا يقال في تلك الأشياء؟ أريد طرد إسماعيل ياسين من ذهني الآن، لا أريد أن أضحك فأغضب الأرواح، أي أرواح، أليس ذلك الذي يهتز هناك روح؟ وستخشاك الروح يا أبله، لماذا أسب نفسي؟ استجمعت شجاعتي وقلت «اظهر وبان عليك الأمان» قلتها بصوت جهوري خشن

بلغة فصحى حتى أظهر شجاعتي وعدم خوفي للعفاريت.

قفز في ذهني ذلك الفيلم الأجنبي عن رحلات المريخ، فوجدتني أقول «جئت في سلام لكني لا أعرف كيف أعود؟» بدأ الجسم المتواري في الظلام يجمد، كنت أعلم من صغري أن الأفلام الأجنبية أفضل من العربي، «ايه اللي أنا بفكر فيه ده» رفعت يدي إلى أعلى ممسكًا بالكتاب وعدت أردد «جئت في سلام ألا من مجيب؟» كان ذلك الجسم بدأ في النهوض، هو أقصر مما تخيلته، وقف بدون أن يتحدث و أشار إلى الكتاب أو كان يشير إلى أعلى، فلم أرَ غير الكتاب، فبادرت «أجل. هو من جلبني إلى هنا، أقسم لك بربي أني لا أنوي شرًا بأحد فقط دلني كيف أعود؟».

بدأ في الاقتراب يتحرك ببطء شديد مائة ملي متر في الساعة، أو ما شابه تلك هي سرعته يتجمد الدم في عروقي، سأفقد الوعي الآن، أغلقت عيني وحاولت شد عضلاتي، لاأحتمل آلام الموت المبرحة، مرت لحظات فلم يحدث شيء، فتحت عيني فوجدت عينين عسليتين تلمعان تنظران نحوي في رعب غريب، ووجهًا ملائكيًا أبيض، وجلبابًا أزرق واسعًا، وشعرًا سميكًا منسدلاً.

«جنيّة» قلتها ورددتها مرتين ثم قلت «إنتي جنية؟» كان يبدو على وجهها الاستغراب مما أقول، لا أعرف إن كانت تفهمني أو لا ولكني أكملت «أنا بشري، اسمي يوسف، أين أنا؟»

كنت أتحدث بصوت عالٍ قليلًا متوتر، ربما من شدة الخوف، رأيت تلك الطريقة في الأفلام، أين أنا؟ لعنة الله علي وعلى الأفلام، كانت تتفحصني بعينيها حين حركت شفتيها الصغيرتين،

- «إيرينا»! هذه أنا، اسمي هو «إيرينا».

كنت أتلعثم جدًا حين حاولت تجميع بعض الجمل أو حتى الأسئلة، هي تفهمني وتجيبني بلغتي، حاولت استجماع ما تبقى من قوة لساني،

«أين أنا؟» قلتها بشكل حازم وقاطع، بداخلي شعور يبدو أمامه الرعب كنزهة في حديقة عامة، كانت تعبيرات وجهها غريبة لا أستطيع أن أقرأ ماذا تشعر أو تفكر، وكذلك عيناها العسليتان تحدقان بي بشدة، حينها قالت بصوت ضعيف يحمل الرعب والهلع الذي بدى واضحًا من عينيها.

- أنت شيطان. جلبك هذا السحر الأسود العجيب أليس كذلك؟

إن هيئتي ليست جميلة جدًا، ربما لست وسيمًا، حسنًا هذا ليس سيئًا، لكني حتى ليس لدي قرون لتلقبني بالشيطان، كم أود الآن أن نجلس أنا وهي على مقهى في وسط القاهرة، وأحتسى حجر شيشة، وأخبرها كصديقين جمعهما سحر أسود عجيب على حد قولها «أوه»!!!.

عزيزتي! أنا وسيم على أن أبدو كشيطان وكذلك لوني ليس أحمر.

طردت كل تلك الهلاوس الغريبة من عقلي الذي بالكاد يعمل وأدفع تلك الهلاوس والأفكار العجيبة كضريبة على عمله حتى هذه اللحظة وسط كل هذا الجنون أو كما قال أحد أبطال رواية قرأتها ذات يوم «أحداث غير منطقية تحتاج الخمر كتفسير لها» حاولت التركيز على عينيها، وكذلك آخر جزيئات عقلي السليمة أخبرني

أن أتحدث بهدوء وبلغة تشبه الأفلام القديمة عن عصر الإسلام والجاهلية وأن أسرد لها قصتي من البداية.

بدأ بصوت متزن خالٍ من العواطف «حسنًا»، وجدت هذا الكتاب بطريقة غريبة جدًا لا داعي لسردها ثم إني قرأت عباراته عند منتصف الليل مرتين فوجدت نفسي هنا، أنا «يوسف» من مصر، وبالمناسبة لست شيطانًا، أنا بشر بالكامل علامات وجهها بدأت في الهدوء وعيناها بدت أقل قلقًا ورعبًا الآن، وبدا لونها العسلي لامعًا على ضوء نار الفانوس الوحيد في الغرفة وأنزلت يدها من على فمها الدقيق وتحدثت:

- لا يبدو لي أنك من مصر فملابسك ولغتك ليست مثل أهل بر مصر جميعهم.

- لا استني كده، إنتي تعرفي مصر؟ أنا معايا بطاقه تحبي تشوفيها؟

- لا أفهمك جيدًا لكن دعني أخبرك أننا في مصر الآن، وأنا من أهل مصر التي تتحدث عنها أيها الجني المحتال أو أيها الشيء فأنا أشك في كونك بشريًا كما أشك في كونك من مصر.

- كم الساعة؟

- لا تغير السؤال لكنها منتصف الليل.

- أين نحن في مصر بالتحديد؟

- واحة بني قاسم.

- واحة بني مين؟ لم أسمع بها من قبل.

- نحن على بعد يومين من الفيوم.

- أعرف الفيوم جيدًا زرتها أكثر من مرة.

- لم أزرها منذ تولية «أبو المنصور نزار بن المعز» حدث عدة معارك هناك، وانقطعت أخبار أقاربنا هناك ولم نرتحل إليها من حينها.

- تولية من؟ هل تقصدين أبو الحاكم بأمر الله؟

- لا أعلم إن كان له أبناء.

- من أي عائلة ذلك الرجل؟ هل فاطمي شيعي؟

- أجل. هذا خليفتهم الثاني ومر على حكمه دورتي حصاد.

- يا الله. أتعنين أنني في العام تسعمائة ميلادية الآن.

- لا أحفظ التاريخ الذي يكتب به المصريون أو العرب ولكن لماذا أنت شارد هكذا لقد زال خوفي الآن، تبدو شخصًا ذا وقار ولست من أصحاب الشرور.

أحاول أن أقلب في كتاب «كيف أعود؟» كتب كيف آتي ولكن العودة لم يتحدث عنها.

- هل تعرفين كيف أعود؟

- لا. من أين أنت؟ وقد أجد لك دليلًا يعيدك حيث أتيت؟

- أنا؟ أنا من العام ألفين وأحد عشر ميلاديًا، أعلم أنك لا تفهمين هذا ولكن لنقل إني من سكان ذلك المكان بعد حوالي ألف ومائة سنة.

- يا إلهي! جلست بجواري على الأرض أنت من زمن آخر، كيف يمكن؟ ماذا سيحدث لنا؟

- أتعلمين؟ لا يهم إن وجدنا حلًا أو لا، لم أعد لكل هذا العبث.

تحدث وكانت عيناه مغرورقتين بالدموع ويعد في رأسه الأشخاص الذين قد يهمهم غيابه إن شعروا حتى بذلك، «مصطفى» فقط من أتى في مخيلته، لا حبيب، لا عائلة، لا شيء إطلاقًا. شرع بإلقاء همومه، تلك هى هواية المراهقين السرية في القاهرة، أن يلقوا بهمومهم لشخص لا يعرفهم ولا يعرفونه ولن يروه مجددًا. فهل ستنتهى الهموم هكذا وترحل مع هذ الغريب أم يفعلونها أملًا في ذلك؟ خرجت كل تلك الأفكار في زفرة واحدة كبيرة ساخنة. وتابع

- لا يهم كل شيء، لا يهم أن يكون القادم أكثر رعبًا وحده ما دمت هنا أريد أن أمرح، أريد أن أشاهد العام.

- لن نخرج في الليل هذا مستحيل إما أن يقتلنا الذئب أو حتى قاطع الطرق.

- لماذا أنتِ صامتة؟ قولي شيئًا، من أنتِ؟ احكي لي.

- أنا «إيرينا عنان»، لا أعرف ماذا أحكي؟

«كانت تبدو حزينة ضائعة، لا أعرف ذلك الوجه الملائكي خلق ليبتسم».

- أين أهلكِ أو زوجكِ؟ أو أي شيء كيف تلك الغرفة التي نحن بها؟ كيف باقي المنزل؟ والأهم هل تفهمين لغتي جيدًا؟ أحاول أن أتحدث العربية الفصحى قدر المستطاع.

- ألا تتحدثون العربية حيث أنت؟

- بلى سيدتي نحن نتحدث العربية ولكنها ستتغير كثيرًا من بعد زمانكم هذا، فهناك كلمات قد تبدو غريبة عليك، من الجيد أنني قرأت تلك الكتب القديمة لـ«العقاد، و لـ«حسين»، و «محفوظ»، و«ابن رشد»، لولاها ما استطعت التواصل، أرجوك لا تصعبي الأمور علي أكثر.

انفرج وجهها على ابتسامة جعلته أكثر صفاءً، هذا على ضوء النار، يا الله!! لماذا لا يوجد هنا مصابيح نيون؟

- حسنًا. أنا لم أتزوج بعد، مات والدي وأمي منذ يومين. تلك الغرفة التي نحن بها هي ما تبقي من الدار، هذا كل شيء.

«كانت تبدو حزينة، علامات وجهها تتقلب بسرعة بين جملة وأخرى، لاحظ دمعة رقيقة هربت من عينيها عندما تحدثت عن والدها».

- لو وجدت سبيلاً للعودة هل ستأتي؟ سأريكِ عالمي بعد ألف سنة.

- ولمَ لا؟ ليس لدي شيء هنا.

- حسنًا خذي تلك الساعة.

- ماذا تقصد أن آخذ الزمن.

- لا. ذلك الشيء الذى أرتديه خذيه، انظري لهذه الثلاث علامات الصغيرة بالداخل إذا توقفت جميعًا هنا بالأعلى هذا يعني منتصف الليل.

- إن تمكنت من العودة عندها اقرئي تلك التعويذة أو ذاك الكتاب مرتين متتاليتين حينها.

- حسنًا. فهمت.

- هل نحاول نقرأ الآن معًا حتى أعود.

- هيا.

«فتحنا الكتاب وقرئنا معًا».

« به نام خالق اين جهان، و بافته شده از موضوعات زمان و مكان، من را به جايى كه اين كتاب در حال حاضر منتقل»

وعاد الظلام من جديد، ثم ضوء غرفتي، فأمسكت بمعصمي فلم أجد الساعة، إذًا هذا ليس حلمًا، هذا الكتاب يعمل، قلبى يخفق بشدة، هناك ألم مبرح بصدري. لم يخطر ببالي وقتها سوى «مصطفى»، جريت إلى هاتفي أو قفزت من على سريري إليه بمعنى أدق، صمت، ثم رنين مزعج، ثم صوت «مصطفى» الناعس.

- ألوو «مصطفى».

- «يوسف» خير في حاجة؟

- تعالى الشقة دلوقتي أنا تعبان.

- مالك في إيه؟

- تعالى بسرعة.

- حاضر مسافة السكة، سلام!

- سلام!

يبدو أني أكثرت الكذب لكني أقسم بربي أن ما بي أشد من المرض بعد نصف ساعة تقريبًا كان جرس الباب يرن وكنت أفتح الباب:

- مالك يبني ما أنت كويس أهو، فيك إيه؟

- في حاجات غريبة بتحصل هنا.

- حاجات إيه يعني؟ بطل هزار سخيف بقى.

- والله ما بهزر اقعد بس هنا شوية.

جلس على كرسي الصالون الذى ربما لم يجلس عليه أحد منذ عدة أشهر طويلة. خرجت عليه ووضعت الكتاب بين يديه.

- الكتاب لقيته في المأذنة فوق، علشان كده روحت بسرعة.

قلب «مصطفى» الكتاب بين يديه وفتحه ولم يفهم شيئًا لكنه علم على الفور أن تلك اللغة فارسية «ليست بعربية» لاحظ رغم كثرة النقوش الزهية حول الكلام أن هناك شرطة غريبة فوق كلمة «جكونة» كذلك ثلاث نقط لحرف الجيم بها مكتوبة هكذا «چكونه» ثم استطرد أنه قديم، هذا ربما يكون أثرا هامًا وربما لو ترجمناه لفهمناه أكثر، أوقفته في حزم.

- الكتاب ده يخصني أنا، أنت متعرفش حاجه.

- أنت سرقت الكتاب ده متقولش إنه يخصك.

- مسرقتوش أنا لقيته وكنت مشوش، هحكيلك اصبر.

- احك.

- أنا قرأت الكتاب ده في نصف الليل زي ما هو مكتوب، لقيت

نفسى في الزمن الماضي، أنا سافرت بالزمن لحد عصر الفاطميين وقابلت «إيرينا» دي وحده عايشه هناك، هى اللي نقلتني بكتاب زي ده معها، صدقني مكنش حلم، ومش بكذب، أديتها ساعتي، وهجيبها هنا بكرة.

- اهدى طيب.

- اهدى إيه أنا مش مجنون أنت مش مصدقني؟ يا بني! والله رحت هناك، بات معايا وبكره هوريك.

- أوك هستنى لبكره بس علشان أوريلك إنه كان حلم.

- عايز منك خدمة بعد ما أثبتلك إنه مش حلم.

- عاوز إي.

- عوزك تبقى مرشد سياحي ليها هنا.

- وإيه كمان؟

- بطل هزار بقى، وننزل الصبح بعد امتحاني نجبلها لبس مناسب.

- لو كان معاك حق وهي هتيجي فلازم نجبلها عباية أو خمار أسود بتهيألي يعني.

- هتبات معايا النهارده؟

- مش هسيبك لوحدك وأنت كدة، أخاف تتقمص دور سوبر مان وتطير.

- والله أنا كويس مش مجنون.

- عندك pes على اللاب توب ولا هننزل لـ PlayStation.؟

- عندي بس مش عاوز ألعب.

- كلا يهرب مني الضغط بطريقته، « متخفش مش هتكسب على كل حال».

بدأت المباراة وانتهت وخسرت بسباعية، مما دعاني أكثر لترك «مصطفى» الذي جلس يتفحص الإنترنت بحثًا عن أي معلومات، وذهبت في نوم عميق، وأنا في مكاني علي الكنبة المواجهة له و لا أعلم متى أنام؟

استيقظت في العاشرة صباحًا غير عابئ بامتحان لي سوف يبدأ بعد ساعتين، وصلت كليتي في الموعد وحضرت الامتحان الذي لا أدري ماذا كتبت فيه؟ وهاتفت «مصطفى» الذي كان نائمًا واتفقنا على اللقاء خلال ساعة ونصف في محطة مبارك ولكن تأخر «مصطفى»، والزحام أرغمني على الخروج إلى رمسيس والجلوس في مقهى قريب أحتسي الشاي والشيشة.

أحاول ترتيب ما علي فعله، ليس كثيرًا، شراء الملابس لـ«إيرينا» وحذاء، ثم معرفة كيف نقضي اليوم الطويل؟ حتى تأتي رنات الهاتف الخافتة وسط كل هذا الضجيج.

- «مصطفى» فينك؟

- أنا في المحطة تحت.

- أنا على القهوة اللي في ضهر قسم الأزبكية.

- أنا هجيلك أهو.

جلس وطلب الينسون المفضل له، لا يحب التدخين إلا ليلاً ويفضل شيشة الليمون والنعناع، شربنا وتحدثنا، ثم ذهبنا وأحضرنا عباءة سوداء مزركشة بالأسود، وخمارًا، وحذاء، أدعو الله أن يكون هذا مقاسها.

تمشينا قليلًا من رمسيس إلى التحرير، وأكملنا حديثنا حول ماذا سيحدث عندما تأتي وأجد «مصطفى» مقتنعًا برأيي أو بالفكرة كليًا عن إمبارح.

- حسيتك بدأت تصدقني.

- لا. بس مفيش مشكلة في شوية جنان.

- أنا مش مجنون.

- بص علميًا حسب ما قريت كتير وأنت نايم إمبارح الأمر مش مستحيل؛ بس ملقتش حاجه عن تعويذة زي دي، وكمان لو حد سافر بسرعة الضوء، وده مستحيل أو صعب لدرجة الاستحالة، هيكون الزمن بمعنى أنت ممكن تسافر من مصر لأمريكا في نفس اللحظة بل لن تمر عليك اللحظة حتى ولكن هذا إن سافرت بسرعة الضوء وإن زادت سرعته ستسافر بالماضي، تسافر النهارده وتوصل إمبارح وفي حالتك مع ألف عام أنت بحاجه إلى السفر في أضعاف سرعة الضوء ولا أظن أنك تمتلك معمل سري في غرفتك، وطبعًا؛ لأن التجربة هي الخيار الوحيد أمامنا، قررنا أن نجرب.

وسط زحام القاهرة وبعض العوامل الأخرى كسعر الثياب استغرق الأمر النهار بطوله وعدنا في الخامسة وبقى لدينا سبع ساعات أخرى على التجربة على حد قوله.

قضينا اليوم في محل play station وشرب الشيشة حتى انتهى الوقت، هي العاشرة صعدنا إلى بيتي وقمنا بترتيب الشقة تقليديًا لاستقبال الضيوف. كوب شاي فريسكا كمان ندعوه، فبالأكواب المليئة بالسكر، فضل الانتظار في الصالة، وتركني أمارس التعويذة وحدي في غرفتي التي أغلقت نورها وأشعلت الأباجورة بجانب السرير وجلست أفكر في ماذا سيحدث؟ كنت متحمسًا لدرجة جعلتني أحتاج إلى الانتحار إن فشلت، أنظر للساعة الآن، اصطفت كل عقاربها على الثانية عشرة بصوت متزن بدأت أردد «به نام خالق اين جهان، و بافته شده از موضوعات زمان و مكان، من را به جايى كه اين كتاب در حال حاضر منتقل».

لم تمر دقيقة إلا ورأيتها أمام عيني أمام السرير.

- «إيرينا» حمدًا لله، ظننت أنني كنت أحلم.

- أنا كذلك، أين أنا؟

- هذه داري أو بمعنى أدق غرفتي.

- لم تجلس بجوار النار؟ ولم شكلها غريب هكذا؟

- هذه الكهرباء وهذا مصباح انظري.

- تحركت وأشعلت أضواء غرفتي فساد نور كل شيء عبر المصباح النيون من السقف ضوء أبيض.

- عجبًا النار بيضاء في السقف.

قالتها بنبرة يغلب عليها الهلع على الانبهار وملامح وجهها الصافية بدت أكثر وضوحًا ورعبًا.

- لا تخافي هذه ليست نارًا.

بدأت أعرفها على الغرفة. مرحبًا بكِ يا عزيزتي في القاهرة بعد ألف عام، الأشياء هنا اخترعناها بعد أن ولت دولتكم بمئات الأعوام. هذا الصندوق العملاق دولاب ملابس، وهذا سرير تعرفيه بالطبع، وهذا الضوء يسمى كهرباء ليس نارًا إطلاقًا داري رعبكِ، أرجوكِ انبهري إن شئتِ انبهري دون خوف، لا شيء هنا مؤذي إطلاقًا، أحضرت لكِ ملابس تشبه ملابسنا ولا تختلف عن ملابسك، هذا جلباب وخمار لا أدري إن كان لديكم مثله، وهذا حذاء يرتدى في القدم، ارتدي ملابسك ثم افتحي باب الغرفة واخرجي سأنتظرك في الخارج، خرجت «إيرينا» لـ«مصطفى» الذي بدا على ملامحه علامات النصر بتلك الابتسامة المستفزة.

- أين الزائر؟ يا فتى التعويذة!

- مجتش أعملك شاي.

اهتز باب الغرفة برفق، كيف لي لم أعلمها فتح الباب غبي هي تحاول دفعه فقط.

فجريت من مكاني المقبض أزحته إلى الأسفل ببطء فانفتح، وهذا الوجه الملائكي الذي يملأه حمرة الخجل تحت الخمار الأسود «يا إلهي كيف لا تكونين ملاكًا؟»

- «مصطفى» رحُب بـ«إيرينا».

ترددت بصوت ناعم يشبه الغناء.

- السلام عليكم ورحمه الله وبركاته.

كان «مصطفى» فاتحًا فمه واتسعت حدقتا عينيه وفقد القدرة على النطق والتركيز.

- هذا «مصطفى» صديقي وسيكون بمثابة دليلنا في القاهرة الليلة.

- مرحبًا بك «مصطفى»!

- تكلم «مصطفى» قائلًا مرحبًا! حكى لي «يوسف» عنك لم أكن أصدقه في الحقيقه لكن أنت هنا الآن.

- كانت تبدو مرتبكة من الموقف وحمرة وجهها بدت ظاهرة.

بادرتها بسؤالي بعد أن أجلستها.

- هل تحبين الأشياء بسكر كثير أم قليل؟

- أحب السكر كثيرًا.

- سأسقيك شايا.

- شاي، ماذا يعني ذلك؟

- نوع أعشاب نغليه مع الماء ونضيف السكر، ليس به أي نوع من المحرمات لا تقلقي.

اقترح «مصطفى» التحرك، نزلنا من السلم أربعة أدوار، كان الارتفاع عاليًا بالنسبة لمنزل، هكذا رأت هي، الأصوات الآتية من الشارع كانت عالية جدًا عكس هدوء الليل التي أتت منه «إيرينا»، بمجرد الولوج إلى الشارع كانت أنظار الناس تتبعهم، من تلك الفتاة التي نزلت من عند ذلك الشاب الأعزب علاقة محرمة حدثت بالتأكيد. هكذا في المجتمع العربي ورث النمطية في التفكير

وتحت مقدار القمع الصادر من الجهل. دائمًا ما يرى الجميع هنا أن فرصة تلاقي شاب بفتاة هي فرصة عظيمة للمضاجعة، لا مجال لشيء آخر إلا إذا اعتبرنا شرب الممنوعات قبل المضاجعة فعلاً آخر، كانت الأعين تفضح كل ما في عقولهم من تفكير، يجب ألا أسمي هذا التخلف الأخلاقي والثقافي تفكيرًا، كان «يوسف» لا يبالي بما يحدث حوله، و«إيرينا» قد ذهبت في خوفها وذهولها من الزحام والعربات، لم ترَ تلك الأشياء من قبل رغم أن المسافة الفاصلة بين البيت وناصية الشارع أربعة أمتار فقط إلا أنهم مروا على «إيرينا» في سنة أو بضع سنين.

رأت عوالم أخرى، لو كنا في فيلم عربي مبتذل لظننت أنها في مدينة الجن، ولكن عقلها المتزن يتعامل بمرونة غريبة مع الأحداث كأنه معتاد السفر عبر الزمن. هي تعلم أنها في زمن آخر تخزن البيانات. بينما أوقف «مصطفى» التاكسي، كان «يوسف» يحاول إدخال «إيرينا» السيارة. تشعر بألم يكاد يمزق رأسها، وكان «يوسف» جاهزًا كالعادة آخر سنتين من عمره اكتشاف عالم المسكنات هذا أقوى للصداع، أما هذا للمفاصل، وهذا إن احتجت أن تفصل عقلك وتنام. أخرج لها قرصين بيض اللون وطلب منها أن تبلع هذا بالماء دون مضغ، لاحظ سائق التاكسي اللهجة الغريبة ولمعت عيناه وظهرت ابتسامة المنتصر على فمه ظنًا منه أنه يحصل على أجرة أعلى لقد ظن أنهما سياح، كانت «إيرينا» تنظر لـ«يوسف» مترددة، كانت تجوب في عينيها أسئلة كثيرة ودعاء وأمنيات أخرى بأن تعود سالمة. طمأنها «يوسف»: «اشربي ولا تخافي هذا سيزيل ألم رأسك»، أخذت

الدواء وخلال ربع ساعة كانوا قد وصلوا. أسوار عالية وبوابة عظيمة مفتوحة تحركت «إيرينا» حركتين ببطء، وضعت يدها على فمها وتحدثت بصوت هامس «يا الله! لم أقترب منها لتلك الدرجة يومًا رأيتها من مركب بالنيل، يا الله! عالية جدًا ثم التفتت إلى «يوسف»، لا يمكننا الدخول بالليل، أليس كذلك؟ يمنع في زمني يجب أن تنتظر حتى الصباح وأن يكون معنا إذن من قائد الحرس أو الخليفة». بدأ «مصطفى» بالكلام أو بالشرح لطالما أحب ذلك الدور حين يبدأ بسرد المعلومات، والليلة الوضع خاص جدًا، امرأة جميلة آتية من زمن آخر:

«هذا الباب باب الفتوح يقع شمالاً ولكن هذا ليس الباب من حيث أتيت، لقد تم إعادة بناء وهندسة موقعه أكثر من مرة، تم توسيع القاهرة مرات، نزلوا من خلال الباب إلى الشارع، الأضواء خافتة، وكما هو الحال في مصر لا تنير الآثار بشكل جيد، حاولوا أن يرياها ما يكفي ولكن ما قلل حماسها هو أن «مصطفى» عندما حكى لها أن هذه ليست القاهرة التي تمنت أن تدخلها، اختفاء قصري الخليفة وكل تلك المساجد وأسبلة المياه من صنع المماليك ومن صنع فاطميين آخرين بعد جوهر الصقلي. رائحة الكبدة والسجق داعبت أنفها الصغير حينها تدخل «يوسف»

- لاعزيزتي أرجوك أخشى عليك من هذا، قد تموتي إن أكلت.

- أموت، أرى أن عددًا كبيرًا حوله يأكلون في نهم ثم إن رائحته مغرية.

- لقد تعودنا نحن على الطعام الملوث، أما أنت فأتيت من مكان

نقي جدًا في الحقيقة..

تدخل «مصطفى» منهيًا حالة الانشقاق الصغيرة تلك.

- ألا تريدين رؤية النيل؟

تاكسي آخر وكانوا على كوبري قصر النيل.

كانت حدقتا عينيها متسعتين وتنظر إلى ما حولها نظرة انبهار، كان قد يظنها المار بجوارها بلهاء.

تذكرك بقصة القروي الساذج الذي يزور المدينة، ولكن في تلك الحالة هي مدينة الجن.

- كل هذه دور، لما هي مرتفعة؟

- أجل أجل. كلها دور للسكن وشركات، تقولون عليها: أنتم وكالات أو حوانيت، وهناك فنادق ولا أعلم كيف تشبه عندكم؟ ولكن لنقل إنها دار ضيافة لعابر السبيل.

- لماذا النيل صغير؟ هكذا كان متسعًا أكثر حين ركبته مع أبي.

- المياه قد جفت قليلًا أو كثيرًا لا أعلم ولكنها قد جفت.

- لم نعد نزرع حول النيل هنا، فقط الدور والمنازل الفارهة والسفن العملاقة التي ترينها ما هي إلا مطاعم تقدم الطعام بثمن غالٍ جدًا لمجرد أنك تأكلين على النيل.

- أريد أن أرحل، أشعر بالتعب، الجو خانق، وقد ضاق صدري من عالمكم هذا، أصوات عالية، أشياء غريبة، لباس الناس عجيب أيضًا، رأيت سيدة لا تغطي شعرها هناك ولا حتى جسدها بالكامل، العاهرات لدينا يرتدون الحجاب ليس كاملا ويخرجون بعضًا من شعرهم.

- ليست عاهرة هذا اللباس، عادي هنا، دعكي من هذا الأمر، سنرحل.

- تاكسي آخر إلى البيت تبدو «إيرينا» متعبة جدا. صغيرتي ماذا لو ركبت المترو، أو حتى الأتوبيس الأحمر الطويل هذا، أو إن مشيت في زحام القاهرة وقت الظهر. عندما عادوا كانت حركة الشارع تكاد تكون خالية صعودًا إلى أعلى، وداعًا «إيرينا»! واتفقا أن يعود لها مساء غد ودعت «مصطفى» أيضًا رددت تلك الحروف الغريبة مجددًا في الظلام ورحلت. ارتمى «يوسف» على السرير، وذهب في نوم عميق، تاركًا «مصطفى» في انتظاره في الخارج.

نامت «إيرينا» من شدة الإرهاق لقد عاشت كابوسًا.

ينظر الجميع إلى المستقبل على أنه الأمل المنشود يومًا ما سيصير كذا، يومًا ما سيحدث كذا، سأصبح غنيًا، سيكون العالم أفضل، ستنتهي الحروب، سأسافر حيث أشعر بأنني أنتمي أحلامًا، وأحلامًا نسجت حول المجهول القادم غدًا أو بعد غد، تلك الشمس الجديدة التي تولد كل صباح شعاع الضوء الصافي الذي ينفذ عبر الحقول، ويجوب بوجدانك فتنتشي وتدعو إلهك وحتى إن كنت بلا دين، ستتمنى على الأقل أن يكون اليوم أفضل.

أما هي رأت الحقيقة، كل شيء يتلف، اللغة تغيرت، القاهرة تغيرت، لا زرع حول النيل الذي يجف، طالما حلمت بدخول القاهرة ولكن ما دخلته كان أمرًا مرعبًا، تعلم أنه مرت على هذا ألف عام ولكن لماذا لم يكن العالم أفضل لماذا؟ كما جرت العادة الجديدة منذ أيام ينقذها شعاع الشمس الأول من النوم. يداعب بشرتها البيضاء

وعينيها الفاتنتين في لطف.

اليوم لديها عمل، عليها أن تكمل جمع محصول القمح، لبست عباية قديمة وخمارًا وأخذت المنجل، واتجهت إلى الحقل تعلمت من مشاهدتها لأبيها كيف يتم العمل؟ ولكن جميعًا نعلم أن المشاهدة شيء والتجربة شيء آخر، المنجل ليس ثقيلاً ولكنه أقوى منها، حاولت، وبعد عناء اجتازت أول حزمة من الأرض، كلفها هذا الألم في عمودها الفقري وذراعها اليمنى ولكنها تحاملت على نفسها، استطاعت التحرك والمكوث في الظل، بدت شاردة وحزينة، كانت هناك دمعة رقيقة تهرب من بين جفنيها، هناك حوار ما يدور داخلها، الآن هذا الجسد الساكن والعقل المضطرب يتحدث بالكثير.

كيف كان أبي العجوز يفعلها، عد الآن يا أبي! وسأتزوج من توريد، عد الآن، أريد أن أحكي لك، أريد أن أبكي بين ضلوعك، أريد أن أموت معك، عد واضربني في اليوم ألف مرة وزوجني كثيرًا وزوجني ممن أكره يا والدي! لكن عد.

صوت أقدام تحطم الحصى أو يحطمها الحصى، ثقيلة كانت وصوتها كان عاليًا، أخرجها من حديثها النفسي ونبهها إلى تلك الدمعة الصغيرة الهاربة فمسحتها، كان كهلاً تجاوز الستين أو السبعين لا أعرف يبدو عليه آثار التعب لحيته البيضاء وعباءته البنية، وتلك العصا السوداء المطرزة باللون الذهبي اللامع إنه الشيخ أبو حسن، خليل أبي وتاجر الغلال الكبير.

كان يبدو على وجهه المرض رغم ابتسامته الخفيفة التي ترتسم على وجهه دون تحريك شفاهة، تحدث بصوت خشن ومجهد:

- «إيرينا» كيف حالك يا ابنتي! لم آت من السفر سوى الآن، وما علمت الخبر إلا وأتيت قبل أن أذهب إلى داري - رحمة الله على أبيك يا ابنتي - كان أبوك رجلًا صالحًا وأشهد له بذلك أمام الله وما يخفي على الله من شيء.

- الحمد لله على ما بلانا فهو الحكيم القدير.

- اللهم ثبت إيمانك يا «إيرينا» إن احتجت أي شيء أخبريني، أنا مثل أبيك في كل شيء، حتى الزيجة التي حدثني عنها أبوك تامة، ولا تقلقي أنت، لديك عائلة كبيرة خلفك يا ابنتي! وأريد منك أن تجمعي أغراضك وتجهزي نفسك للسكن عندي مع بناتي وزوجتي، فلا أمان على من مثلك أن يجلس في بيت مهدوم وحيدًا فوالله ما عاد في هذه الدنيا خير إلا ما رحم ربي.

- شكرًا لك يا شيخي! أريد أن أجلس وحيدة ليومين، لم يعد لي بعد أبي غير تلك الدار، يومين فقط وسأكون لديك.

- كما تشائين يا ابنة الغالي! أستودعك الله.

- في حفظ الله يا شيخي!

الهواء صار أثقل بعد ذلك الحديث، هي لا تريد أن تذهب معه منذ طفولتها وهي تكره ذلك الرجل، لا تعلم سببًا لذلك ولكنها تكرهه، الآن صارت تبغضه أكثر بعد تكرار موضوع الزيجة، للحظة تذكرت خالًا لها يعمل في الفسطاط حدادًا زارته مع أبيها وأمها عدة مرات من قبل، كيف السبيل إليه؟ لا تعرف أحدًا يمكنه مساعدتها، لماذا لا تنقل تلك التعويذة الغريبة؟ منعها أذان الظهر من التركيز،

قامت للبيت عائدة لصلاة الظهر، وجلست تقرأ القرآن حتى العصر، وبعده أعدت الطعام، فهناك ضيف في المساء تحاول أن تكون كريمة معه، هكذا تعلمت أن ترد الضيافة بأفضل منها، أعدت الخبز وقامت بشوي قطع لحم، أحضرتها من السوق، وكذلك أعدت الزنجبيل؛ ليكون شرابهم على الغداء، الساعة الآن في يدها قبل علامة البدء، مر نهار «إيرينا» الفارغ وليلها أيضًا، هي الآن في انتظار «يوسف»، لديها شغف به الآن، هو ليس حبًا وإنما مجرد شعور قد تتبادله مع صديق لك من سكان المريخ أو زحل.

الانبهار و الاستكشاف ومزيج الخوف والشجاعة والمعرفة هي الوحيدة التي تشعر بذلك، هذا الأمر قوة أسطورية، شعور يجتاح ذهنك، يخيل لك أنك الآن قادر على أي شيء، تلك القوة القادمة من عقلك.

أنت تعرف ما تؤول إليه الأمور، شهوة معرفة كل شيء، تلك الشهوة التي حرمنا منها الله كي لا ندمر أنفسنا حتى يمكننا أن نعيش.

من عرف الحقيقة فقد مات ومن هو حي منهم فقد مات عقله.

تلك المقولات تتكرر كثيرًا، لقد ذهبت في الحديث معك، آسف لكني ككاتب أعلم المشهد القادم، أما أنت فلا، لكن دعني أخبرك عن يوم «يوسف» أولًا، لقد نام، نام طويلًا حتى الرابعة عصرًا وحين أفاق وجد «مصطفى» نائمًا على الأريكة، وحوله فوضى من الأوساخ، حاول جمع الأوساخ من أكواب شاي فارغة وبقايا أطباق، بها طعام دون إزعاج «مصطفى» إلا أنه قد استيقظ في النهاية.

- صباح الخير.

- صباح الخير (نبرة نعسة متعبة).

-سبتك ونمت على نفسي أنا امبارح، لامؤاخذة يا صاحبي!

- معرفتش أنام أصلاً، فضلت صاحي لحد الصبح بفكر.

-صاحي لحد الصبح بتفكر يا!!!! وحليت المعدلات النسبية ووقفت خرم الأوزون ولا لسه.

- عارف أنا مش هشتمك دلوقتي ليه.

-علشان متعرفش أصلا.

- لا علشان أنا ابن ناس وعلشان أنت يتيم وصعبان عليا وعلشان أنت سبب إن أنا منمتش.

-ابن أصول ياض والله هنشرب شاي ولا هننزل نفطر ونشيش.

- هي الساعة كام دلوقت.

-أربعة ونص.

لا بقى إحنا نفطر ونتغدى علشان جعان وبعدها نشيش.

-حسنًا. بدأ بالأكل ثم يدخنون الآن، أكره دخان ذلك الشيء، سأدع «يوسف» يكمل حتى ينتهوا من جلستهم تلك.

ارتديت ملابسي بينما كان «مصطفى» يحدثني عن أهمية ذهابه للمنزل للاستحمام وتبديل الملابس فالجو بارد جدًا، شهر يناير دائمًا هكذا.

ذهب واستحمى وبدل ملابسه في وقت قصير جدًا، كان كافيًا

أن أشرب أربعة أكواب من شاي، وحوالي عشرة أحجار شيشة، ياله من سريع! عمومًا لا يهم قد أتى أخيرًا ودفعت الحساب واتجهنا إلى فيكتوريا، حيث عم شَكَلْ.

أكلنا كثيرًا جدًا كرات اللحم، والفشة، والكرشة، والممبار، والكوارع، أكلنا حتى لم نجد مكانًا للهواء بداخلنا، نحاول النهوض من على الطاولة من حوالي ربع ساعة نجحنا أخيرًا، واتجهنا إلى ليالي فيكتوريا، ذلك المقهى الشهير المميز ولكن فور رؤيتنا لـ«أشرف» القهوجي غيَّر «مصطفى» رأيه بقوله «أشرف المكتئب لا و النبي» فعدلنا وجهتنا إلى عم تامر صاحب أحد المقاهي المتهالكة في زقاق منسي، جلسنا وقد نزلت الشيشة مع أكواب الشاي الساخنة المليئة بالسكر وصوت الست المتهادي إلى مسامعنا في تناغم يشعرك بأنك المالك الوحيد لذلك الكون فبادرت بالقول:

- مستكنيص؟

- مستكنيص.

- أنا مستكنيص.

- الله إيه العظمة دي.

- تفتكر هيحصل إيه؟

- هنموت لو مهضمناش.

- يا أخي! أنا بتكلم عن التعويذة.

- معرفش مش عارف ممكن تستفاد ايه.

- بفكر أروح أقعد هناك كام يوم.

- هو أنت رايح الغردقة يابني؟ الحياة هناك غير هنا وبعدين هتقولهم أنت مين بقى؟

- سهله دي هقولهم عابر سبيل فقير إلى الله ألا من مرشد سياحي يا قوم!

- أبو تفاهتك.

- مش بهزر والله نفسي أشوف وأعيش وسط الحياة البسيطة دي.

- من رأيي إن الوضع هناك مش زي هنا، بمعنى مش هتعرف تخدك تفسحك لأن أولا: الأماكن بتاعتهم اللي إحنا بنتفسح فيها ديه كانت استخدامهم اليومي، وثانيًا: لأنه في الغالب عدد سكان أي منطقة كان قليل بالدرجة الكافية اللي تخلي الكل معروف للكل بمعنى أدق مجرد ظهورك وأنت شحط كبير كدة فجأة هيكون سبب في سؤال واحد بس بالنسبة للناس «هو مين ده؟» وهتواجه مشاكل أظن إن إيرينا في غنى عنها.

- صحيح شفت الدعوات اللي على الفيس ده بتاعك 25 يناير؟

- كنت لسه هقولك، هتنزل؟

- أنزل فين يا عم وأنا مالي ثم هايموت الناس زي 2008 في المحلة و خلصت الليلة.

- والله معرفش أنا شخصيًا هستنى شوية لما العدد أحس إنه بقى مناسب وأنضم ليهم.

-أنت موضوع تونس بس محمسك شوية هات فيديوهات الجزيرة بتاعت 2008 وأنت هترجع في رأيك.

- يلا نروح يا عم أنت قفلتني.

- اه والنبي اريح شويه قبل السفر.

- خلاص بقى سفر.

- قوم حاسب طيب ويلا.

سارا متخبطين الخطى متثاقلين الخطوات حتى البيت، انفصلا عند ناصية الشارع، عاد «مصطفى» إلى بيته و«يوسف» أكمل السير إلى البيت، دخل البيت ونظر إلى الساعة، ما زال هناك وقت أمامه في حدود ثلاث ساعات، النوم خيم عليه، تناول الكثير من الطعام، ضبط المنبه على الحادية عشرة والنصف، ونزل تحت الغطاء، وذهب في النوم سريعًا جدًا.

- استيقظ على رنين المنبة الذي لم يكن مزعجًا تلك المرة، ارتدى بدلة رسمية، ووضع عطره المفضل، هو الآن ذاهب إلى موعد مع أجمل فتاة رأتها عيناه.

لا يعرف ماذا يفعل بتلك التعويذة سوى أن يستمتع، الآن هو بطل تلك الروايات التي يعشقها، الليلة هو يعيش الأحداث بنفسه وليس الأمر نسيج خياله.

تأنق وأخذ معه كشاف ضوءه كبير، كان يستخدمه عندما يقطع النور عادة في القاهرة، جلس على السرير ويمسك بالكشاف بين يديه ثم بدأ في تلاوة التعويذة عندما دقت الساعة الثانية عشرة قال بصوت متزن:

«به نام خالق اين جهان، و بافته شده از موضوعات زمان و مكان،

من را به جایی که این کتاب در حال حاضر منتقل».

فساد الظلام مجددًا، فوجد نفسه أمام «إيرينا» واقفًا بجوار المصباح الناري في وسط جدار الغرفة، وضع الكشاف على الأرض، ومال في حركة مسرحية «تحياتي إلى مولاتي أميرة تلك المملكة وحاملة الكتاب فأنارت وجهها ابتسامة ولاحظ لمعان عينيها على ضوء المصباح فبادر:

- أحضرت معي نارًا بيضاء هل تمانعي بإشعالها؟

وضغط الزر فأنار الغرفة التي بدت الآن أصغر وأوضح، ووضع الكشاف في جانب الغرفة المقابلة لهم.

تبدو ملاكًا في جلبابها الأبيض المزين بالأزرق الصافي.

- تفضل اجلس، وقد أشارت بيديها إلى كرسي صنع من الخشب وعليه وسادة ناعمة فجلس وقد خلع الجاكيت الخاص به.

- هل هذه غرفتك؟

- لا. هذا مخزن الغلال، غرفتي تدمرت مع باقي الدار وأصبحت أبيت هنا، انتظرني لحظة هنا.

هربت وأحضرت صينية صفراء وعليها أطباق بها لحم مشوي، جلست ومدت إليه الطبق لكي يتناول قطعة، كان طعم اللحم شهيًا جدًا به توابل، لم يتذوق مثلها من قبل، تلك الأشياء الطبيعية لم تعد موجودة في زمنه أبدًا، إلا بالطبع لأصحاب السمو أولاد الذوات والمعالي، هؤلاء الذين ورثوا العالم.

- إنه لذيذ جدًا.

- شكرًا لك تفضل اشرب الزنجبيل.

- الزنجبيل؟

- لا تعرفه؟

- لا. أعرفه ولكن هناك أشياء أخرى تشرب على الطعام لدينا.

- الزنجبيل هو الكوب الأكثر تداولًا هنا ويصفي الذهن ويريح المعدة.

«أنهى طبقه في عجل، لا يتناسب مع ذوقيات الضيافة أبدًا..

-لم أكن جائعًا لكن اللحم لذيذ جدًا، تغير كثيرًا في زمني، أريد أن أرى عالمك كنت أقول لـ«مصطفى» قبل أن آتي إليك لماذا لا أبقى هنا أيامًا أرى فيها هذا الكون؟ لكنه قال إن ذلك صعب ومستحيل.

- ماذا تريدين أنتِ؟

- أريد أن أرحل من هنا ولكن ليس إلى عالمكم، أريد أن أذهب إلى الفسطاط، لا أريد أن أكون هنا.

- لماذا؟ احكِ لي لماذا؟ وما خطب الحياة هنا؟

- لقد مات والدي وكان أبي يريد تزويجي من رجل لا أحبه، ولديه زوجتان أيضًا، أنا لا أحب أحدًا ولكن لا أريد ذلك التاجر، وإن بقيت سيزوجوني إياه، فقد كانت هناك خطبة وعليها شهود، ثم إنهم لن يتركوا فتاة مثلي تمكث وحدها دون زوج، هذه كما يدعون فتنة، لا أعلم أي فتنة، أنا لست عاهرة، فقط لا أريد الزواج.

ظننت أن هذا السحر العجيب قد ساعدني ولكن كل محاولاته ضاعت هباءً.

- بلي هذا السحر العجيب سيساعدك.

- أتعرف طريقة؟

- أجل. أعرف ولكني أحتاج مساعدتك بها.

- أنا؟

أطبق صمت مريب على الغرفة بعد هذه الكلمة وكأن الزمن توقف للحظة، وتبادلا حينها نظرات غريبة.

نظراتها تتهمه بتسفيه حاجتها ونظرته كلها شغف وتحد.

- أجل. لمَ الصمت؟

- وكيف لك أن تساعدني؟ إن عبرت باب الغرفة ستتوه ويقتلك أهل الواحة؛ لأنك غريب ولا تمتلك سببًا يجعلك في منزل امرأة مثلي الآن سوى الزنا.

سنرجم أنا وأنت حتى الموت أو نجلد على الأرجح، كما تعلمت في الكتاب عن كلام الله.

- لذلك أنا أحتاج لمساعدتك لقد شاهدت كمًا هائلًا من الأفلام، وقراءة الكتب، وتلك الأفكار الواردة فيها قد تبدو ساذجة من وجهة نظري ولكنها مبتكرة بالنسبة لكم، هذا لا يعني أنكم أغبياء بالطبع بل يعني أنكم لم تمروا بتلك التجارب من قبل.

- هات ما عندك؟

- ساعديني لكي آتي به.

- كيف أساعدك؟ دلني.

- حسنًا. دعيني أفسر بعض العناصر أو دعيني أقص عليك ما يمكن فعله وأنت اختاري ما يتماشى مع زمنكم.

- حسنًا. هيا لنبدأ.

- دعيني أسألك أولا لماذا ذكرت الفسطاط بالتحديد؟

- لي خال يعيش هناك يعمل حدادًا.

- إذًا أين المشكلة؟ سافري وعيشي معه لا أظن أن عادتكم تمنع العيش مع خالك.

- ولكن كيف سأسافر إلى هناك وأظن أنه سينتهي الأمر بي، جارية تباع بعد أن يخطفني اللصوص وقطاع الطرق.

- إذًا فالمشكلة هنا في كيفية السفر.

- أصبت شيئًا مما أود قوله.

- هل تعرفين الطريق؟

- بالطبع لا. الصحراء جميعها سواء في نظري، ولكن هناك أدلة يمكن أن تنقلنا ولكن مقابل المال بالطبع، وإلى جانب هذا لا يمكنك الوثوق فيهما تمامًا.

- هل لديك المال؟

- لدي ما يكفي.

-حسنًا. أنا لدي خطة، سأقولها واسمعيني إلى آخر حديثي ثم عدلي عليه بما يناسب هنا.

- حسنًا. فهمتك.

- سأعود غدًا ولكن صباحًا، وسألبس مثلكم، وأبحث عن دليل، وأعطي له المال ليدلني على قافلة ذاهبة إلى هناك، وحينها سأقول إنني كنت عائد من الفيوم، هاجمني اللصوص، وسرقوا مالي، وقتلوا قافلتي، وإنّ معي زوجتي.

وأنتِ سوف تتنكرين وتخفين وجهكِ، وهو سيأخذنا إلى القافلة، ونرحل معهم إلى الفسطاط، ثم أوصلكِ عند خالكِ، وهكذا سينتهي الأمر، ما رأيكِ؟

- ما تقوله جيد، وسوف أعطيك المال وملابس أبي، ولكن ماذا سنقول لخالي؟

- سأقول له إنني زوجكِ، وفور وصولنا يشب بيننا خلاف، وألقي عليكِ يمين الطلاق وأرحل.

- هذا سيستغرق أيامًا.

-لا يهم سوف أعود إلى زمني وكأنه لم يحدث شيء ولكن هل تظنين أن تلك الحيلة ستنطوي عليهم دون أن يكتشفوا أمرنا؟

- فليرعانا الله فهو خير حافظًا.

- هل لديك المزيد من اللحم؟

- يبدو أنك لم تكن جائعًا حقًا.

- أنا أمزح فقط معك، هل أنتِ جاهزة؟

- لا أعلم، لدينا أرض وحصان.

- هل تركهم ورحيلك يشكل مشكلة أكبر من بقائك هنا؟

- هي الباقية من أبي.

- حياتك وحريتك أهم من تلك الأشياء كلها، ثم إن روحك هي الباقية من أبيكِ أيضًا.

- لديك الحق فيما تقول، ونعم القول يا «يوسف»!

- حسنًا. سأرحل الآن واتركني غدًا؛ لكي أجهز أمتعتنا للسفر، لكن أنتِ ستجهزي المتاع الحقيقي، ما سيكون لدي هو حيل فقط؛ لتقينا من خطر الطريق، سأرحل الآن على أن تعيدني بعد غدٍ في الساعة الرابعة فجرًا بعد موعدنا الأصلي بأربع ساعات عندما يمر موعدنا، انتظري حتى تأتي تلك العصا على الرابعة، أي هنا بالتحديد لا تنسي.

- حسنًا فهمت.

- هل لي بكوب زنجبيل أخير قبل عودتي سيدتي؟

- أجل. تفضل.

تناولا كوبًا آخر وكأنه نخب خطتهما للهرب، ثم بدآ في تلاوة التعويذة معًا فساد الظلام مجددًا.

عندما عاد إلى غرفته كان قد نسى الكشاف هناك، كان اللحم والزنجبيل ما زالا يثقلان معدته فأبعدا النوم عنه، وجعله يشعر بنشاط غير معتاد في خلايا عقله، فهاتف «مصطفى» ولكن الرد أتى أسرع مما يظن.

- «مصطفى» أنت منمتش؟

- لا. كنت مستنيك.

- هروح أعيش هناك كام يوم بس هرجع عاوز أشوفك.

- مالك مرتبك ليه كده مش فاهم حاجه.

- خلاص نام وأشوفك بكره بدري.

- تمام تمام تصبح على خير.

- وأنت من أهله.

- النوم لم يكن حليفًا جيدًا قط، وظل التفكير رفيق السكن الساهر، يعبث في خلايا عقله، ذلك المسكين مر بما لا يصدق، لا أظن بأن الجهاز العصبي كان مصممًا لتحمل كل ذلك، ما الذي يدفعه للاستمرار؟ ليست لعبة فيديو سيضغط على زر ويعيد اللعبة إن فشل، هو لا يعلم مدى حماية التعويذة له، هي تعيده إلى زمن بلا مرور وقت، ولكن إن أصيب أو قتل هل سيعود حيًا؟ الأفكار السوداء تتزاحم في عقله ولكن أي أفكار سوداء قد تتغلب على «يوسف»؟ طالما ظل حيًا، طالما ظل يمرح، طالما ظل «يوسف» حتى بلا والديه وعائلته الكبيرة، وحيدًا حتى من الأصدقاء، وحيدًا في أفكاره، وقراءاته، وتصرفاته، لا يشبه أحدًا مما حوله حتى «مصطفى»، هم لا يتشابهان ولكن على الأقل يلتقيان، يتفهم كل منهما الآخر ويتقبله، كما هو بكل سيئاته، وأخطائه، وطباعه بكل نوبات الجنون، والفرح، والاكتئاب.

أظن أنه قادر الآن على أن يأخذ قراره بالرحيل، ليست لمساعدة تلك الفتاة التي تنتظره هناك، كمهدي منتظر، ومسيح مخلص، وأمل أخير قد تموت بعده، بل لأنه يريد أن يفعل هذا، كل الأحداث

المهمة في حياته حدثت له، المصائب الكبرى، والأفراح الكبرى رغم قلتها حدثت له.

لم يكن مشاركًا فيها كان هو المفعول به حتى عندما وجد الكتاب كانت هناك قوة ما غريبة تسيطر عليه وتوجهه إليه، لكن تلك المرة هو الفاعل. هو المحرك. هو من يقود الحدث ويشعر في قرارة نفسه بذلك، لذلك سيذهب.

تحرك من ثباته الذهني من على الأرض حيث كان متكئًا بظهره على جدار الأريكة، تحرك في عجالة إلى مكتب والده الذي ربما لم تطأه قدمه منذ سنوات، جالسًا على كرسي والده الذي كانت تغطيه طبقة من التراب الناعم.

نظر إلى الدرج الأول ذلك الدرج الذي كان محرمًا عليه فتحه، هو يعلم ما به ولكن كلما فكر في فتحه شعر برهبة داخلية، ربما هي ناتجة عن كم الأوامر والترهيب الذي تلقاه لعدة سنوات في حياة والده عن عدم فتح ذلك الدرج، عن عدم لمسه استجمع المزيد من الشجاعة مشتتًا جزيئات تلك الرهبة الخفية داخله حتى اختفت صارت أضعف، فقبض على مقبضه وفتحه، وضع يده على المصدر الحقيقي لكل أوامر النهي، ذلك السلاح الناري القديم، أسود كقطعة من الليل، ذهب بريقه مع الزمن وعدة طلقات في علبة كبيرة نسبيًا، أخرج خزينة الطلقات، وفك زر الأمان، وسحب جزء المسدس العلوي للخلف بإذن منه للمسدس بالتأهب للإطلاق، ضغط على الزناد سمع صوت طرقة تلك السوستة الداخلية بقوة، كان خالٍ طبعًا من الطلقات، ولكن شعر بقوة لم يعرف مصدرها وهو ممسكًا به.

ربما هذا شيء عاديًا هنا ولكن هناك يمكن أن يحكم العالم به، أخرج علبة الطلقات من الدرج، أفرغها على سطح المكتب كلها، بدأ في ملء الخزان، استوعبت ثماني طلقات، و بدأ إعادة باقي الطلقات إلى تلك العلبة المعدنية التي وصلت بها الطلقات للرقم اثنين وتسعين، معه الآن مسدس ومائة طلقة، أخذ العلبة والمسدس، وخرج من المكتب إلى غرفته، وفتح اللاب توب يحاول البحث عن صديق له في الجامعه يسمى «هيثم» - هيثم عضو بارز في رابطة مشجعي النادي الأهلي - تواصل معه وطلب منه شماريخ تلك التي يستخدمونها في إبهار العالم، هو يعلم أنها أدوات إنقاذ تستخدم لإرسال إشارات استغاثة في البحر، لكنه يعلم أيضًا مقدار الضوء الصادر منها والحرارة، طلب منه كل الكميات التي يستطيع توفيرها في خلال ساعتين، لم يسأله «هيثم» عن السبب؛ لأنه يعلم أن «يوسف» لن يجيب وقد يدخل معه في صدام تلك عادة «يوسف»، الجميع يخشون سؤاله عن أي أمر شخصي، وبالتأكيد «هيثم» لا يريد إضاعة تلك الصفقة، بعد ساعتين كان يحمل حقيبة سوداء بها 20 شمروخًا وعليها قفاز هوكي هدية، أخبره بأن ذلك القفاز لحمايته عندما يلتهب الحديد المصنوع منه الشمروخ، وعلم كيفية الاستخدام على عجل، استلم مبلغًا من المال الذي هو حوالي ألف جنيه، دفع «يوسف» هذا المبلغ الضخم على سبيل عدم العودة أو حتى كونه مبلغًا زهيدًا إذا ما قارنته بالحفاظ على حياتك.

عاد إلى البيت، إنها الواحدة، هناك ثلاث ساعات أمامه على الرحيل، أخذ الشنطة السوداء الكبيرة أولاً ولكنه انتبه بأنه ليس

ذاهب في رحلة إلى الساحل الشمالي مثلا، قرر الاستغناء عنها بملاءَة بيضاء ووضع داخلها تسعة عشر شمروخًا وعلبة الطلقات وزجاجة تحوى بنزينًا، وولاعة، وهاتفه، وبعض الأوراق والقلم، ثم ربطها وجلس يحاول أن يجعل نشاطه العقلي اهدي حيث مرت الخمس دقائق الأخيرة ثم بدأ في تلاوة التعويذة مجددًا:

«به نام خالق این جهان، و بافته شده از موضوعات زمان و مکان، من را به جایی که این کتاب در حال حاضر منتقل».

وعادها مجددا، فعاد الظلام من جديد داخل تلك الغرفة، كانت «إيرينا» جاهزة بمتاع الرحلة وأعدت له الثياب، ولكن كيف سيخرجان من المنزل أمام الناس؟

فأخذ منها الثياب وطلب منها أن تعيد القراءة عندما تدور العصا الطويلة دورة كاملة بحيث يكون قد لبس الملابس، وعليها أن تقرأها في مكان بعيد حتى يتسنى لهما الظهور من العدم، عاد إلى غرفته وبدل ملابسه،

وارتدى ملابس والدها التي تبدو ضيقة عليه قليلًا وقصيرة من الأسفل، ولكن هذا طبيعي كانت الثياب قصيرة هكذا حتى لا يعلق به شيء، وارتدى خف والدها، ولف على وسطه النطاق «ذلك الحزام الأحمر المزركش بالذهبي» ووضع بداخله المسدس المحشو بثماني طلقات وشمروخًا وحيدًا، وانتظر دورة الساعة وبدأ في تلاوة التعويذة من جديد.

ولكن تلك المرة وجد نفسه في حقل قمح لم يتم جمعه بعد، وهي

أمامه في عباءتها الزرقاء، وحجابها المنسدل الذي يشبه الخمار، وقد أوصلت به قطعة قماش أخرى حتى تقوم بإخفاء وجهها، كما اتفقا، كانت تحمل هي الأخرى بؤجة تشبه قليلاً ما يمسك به، كانت دقات قلبه متسارعة وهي أيضا، الأدرينالين يعبث بعقولهم الآن، جهازهما العصبيان يحاولان أن يتداركا الموقف، تلك الأشياء لا تحدث كل يوم، النساء لا تسافر وحدها مع غرباء فارين إلى قريب يحيا بجوار القاهرة، والرجال في زمنه عادة لا يسافرون عبر الزمن، ثم يكملون الترحال على جمل في صحراء واسعة.

بدأ بالحديث:

- هل أحضرت كل ما نحتاج؟

- أجل. لدي هنا طعام وماء، وكذلك غطاء وخيمة صغيرة وضعتها خلف الشجرة.

- حسنًا. لنراجع خطتنا، سأذهب: لأبحث عن دليل وأخبره أنني من القاهرة.

وكنت في تجارة إلى الفيوم، وحين العودة قتل اللصوص قافلتي، ونجوت أنا وزوجتي، وأريد أن أعود.

و الآن يمكنك أن تدليني أين أذهب لأجد دليلاً.

- ستذهب صاعدًا نحو البيوت بالأعلى، وستجد المسجد، اسأل أي بائع في السوق حول المسجد سوف يدلك، ثم تخبر الدليل قصتك وتحضره إلى هنا، تذكر الطريق جيدًا لتعود.

- حسنًا. فهمت.

-في حفظ الله.

- وداعًا!

أخذ الطريق الصاعد إلى القرية، كان يحاول أن يجد علامة مميزة للطريق، كل ما رأى كانت أرضًا زراعية مقسمة إلى مربعات صغيرة، وحولها نخل، كان النخل يحيط بكل شيء محاصرًا قواطع الأرض وعلى جانبي الطريق، ويظهر من بعيد بيوت القرية، أخيرًا وصل، وميّز المسجد، كان بناء من جذوع النخل، ليس مسجدًا من أي جانب سوى جانب القبلة الذي هو الجانب الشرقي، ووجد حول المسجد عدة دكاكين صغيرة يعرض أصحابها بعض اللحم، والفاكهة، والسمك الذي لا يعلم هو كيف وصل إلى هنا؟ وكذلك البلح، لماذا هذا المعتوه يبيع البلح في قرية بها كل أعداد النخل تلك؟ اقترب من البائع في توتر وحدثه:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام.

- هل لك أن تدلني على دليل يصحبني في الصحراء إلى القاهرة؟

- انتظر هنا لحظة.

توارى البائع إلى داخل الدكان، وخرج معه شخص آخر تبادل بعض الكلمات أمام باب الدكان الصغير ثم اقترب منه:

- مرحبًا بك في قريتنا، من أين أنت؟

- أنا من الفسطاط، كنت في تجارة إلى الفيوم، واللصوص هاجموا قافلتي، واختبأت أنا وزوجتي، وقتلوا كل القافلة، وأريد أن

يساعدني أحد للعودة.

- وهل تمتلك ثمن العودة؟

- إن شاء الله. لدي المال.

- سيكلفك هذا عشر قطع نقدية.

- يا الله! لقد أتيت من القاهرة بقطعتين فقط كيف لك أن تطلب ذلك؟ ألا تخشى الله في رجل ضل الطريق فوقع عابر سبيل بينكم؟! أمات الدين في صدوركم يا رجل؟!

- حسنًا. ثلاث قطع وسأوفر لك الحماية طوال الطريق حتى بيتك.

-ثمنها قطعتان، وسأزيدك قطعة، حسنًا لا بأس، أريد أن أرحل الآن، هل أنت جاهز؟

- أعطني مهلة، أخبر أهل بيتي وأعود إليك، أين زوجتك ومتاعك؟

-سأحضرهم وآتي إلى هنا الآن. سأنتظرك.

- حسنًا. السلام عليكم!

عاد إلى الهبوط، وحاول التذكر جيدًا، وحالفه الحظ في هذا، وجدها جالسة متكأة على شجرة وشاردة الذهن، اقترب بهدوء، وجلس بجوارها، وقص عليها ما حدث، كانت تبدو متعبة وحزينة والدموع تحاول الفرار من بين جفنيها، لكنها لا تريد أن تكون بذلك الضعف، الآن لحظات تفصلها عن النجاة، لحظات وتكون خارج هذا العالم ذاهبة إلى عالم جديد، تُمنّي نفسها بجوار القاهرة برفاهية الحياة بالعلم الوفير.

كانت تحب التعليم بالكُتّاب حتى منعها الشيخ الاختلاط بالأولاد، تعرف الكتابة وتعرف أنها تريد أن تتعلم، لا تريد أن تتعلم شيئًا بذاته ولكن قوة المعرفة لها سحرها، قطع «يوسف» حبل تلك الأفكار وحمل بؤجته البيضاء والخيمة الصغيرة، ومشى بجوارها، لكنها طلبت منه أن يتقدم أمامها؛ لأن تلك عادة الناس هنا، الرجال في الأمام والنساء خلفهم، وأن يكف عن الالتفات حوله حتى لا يثير الشكوك ضده، ذهب حيث المسجد الفارغ الآن إلا من رجل نائم وآخر جالس يذكر الله بصوت عالٍ يرتدي عمامة كبيرة نسبيًا عن الناس هنا.

توقف عند بائع البلح مجددًا والتفت إلى «إيرينا»:

- سوف ننتظر هنا، أخبرني أنه آت. هذا دكان أخيه.

- هل اخترت «عثمان الكنعاني» ليكون دليلنا؟

- وكيف لي أن أعرف اسمه! ثم ماذا يعني هذا؟ خير أم شر؟

- شر! هذا ليس شرًا، هذا أبو الشرور، فليحمنا الله هو خير حافظًا.

- لا تقلقي هكذا معكِ رجل، لدينا كل ما يسمح لنا بالسيطرة على عالمكم إن أردنا.

- وما هو كل شيء، أمعك سيف، أم رمح، أم قوس، أم ستحضر نارًا بيضاء أخرى؟

- معي مسدس وشماريخ.

- مسدس ماذا يعني؟ وذلك الشماريخ ماذا تقصد به؟

- هل سمعتي صوت الرعد من قبل؟

- أجل.

- هذا له صوت كالرعد، وعندما يصدره ينطلق سهم حديدي صغير بسرعة عالية يخترق القلب ويسبب الموت في لمح البصر، ومعي من ذلك الصوت مائة مرة.

وأما عن الشمروخ يسبب إضاءة عالية جدًا وحرارة كأنه جمرة كبيرة مشتعلة يكفي لإنارة مساحة ليست بقليلة من الصحراء أمامنا.

لكن لمدة قصيرة ومعي منه عشرون شمروخًا، كل هذه الأشياء قاتلة في سرعة عجيبة وأظن أنها ستقتلهم إن حدث، ومن لم تقتله ستخيفه بسبب أنكم لم ترونها من قبل.

- لا أستطيع تخيل ما تقول لكني أدعو الله أن يمر الأمر في سلام ولا نحتاج لها.

- ليكن الله معنا! ها هو آت بجمله.

- يا الله! لقد أعددت الحصان ولكني نسيته.

- لم ألحظه في الحقل.

- لأنه في الدار.

- حسنًا أسرعي احضريه واذهبي إلى المكان الذي تقابلنا فيه وسأحاول أن أبطئ سيرنا إليك.

هرولت «إيرينا» إلى دارها كانت تتمتم بآيات من القرآن وظلت تعيد ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا

﴿يُبْصِرُونَ﴾ كان يعبث بذاكرتها حدث الهجرة النبوية وكيف نجّا الله رسوله كم يتشابه الموقفان في ذهنها.

هاجر الرسول لحماية الدين والذين آمنوا، وهي تهاجر الآن لحماية روحها وعقلها من مصير قد وضعت فيه دون إرادة منها، إلى حياة أخرى آملة أن تصنعها بنفسها، وقد كان لها ما تمنت حماها «الله» والطقس الحار لهذا اليوم من وجود الناس، عادة ما يبدأ اليوم بكل الناس في الأسواق وفي الحقول في الطرقات وشعاب القرية، هناك حر أتى في غير موعده أبعد الناس عن العمل في الساعات الأولى من الصباح، تسللت إلى الحظيرة، وأخرجت الحصان، وقد وضعت عليه سرجًا به جيوب تحوي طعامه، ياله من مشهد غريب على تلك القرية!! امرأة تخفي وجهها، سائرة بيدها حصان حتى من شاهدها، كان يتعجب ولكن لم يكن عدد من شاهدها يكفي ليفضح أمرها، ذهبت حيث استقرت في موقعها حيث الاتفاق للتلاقي.

حين وصلت هي كان هو يتهادى مع «عثمان» الدليل بجوار الجمل في منتصف الطريق، «عثمان» يشتكي من حرارة الجو ويخبر «يوسف» أنه عليه العدول عن فكرة السفر اليوم؛ لأنه ربما لا يتحمل عبء السفر في هذا الجو، لم يرد «يوسف» وكأنه لم يسمع ولم يكررها «عثمان»، وصلا إلى المكان حيث تنتظره، أخذ «عثمان» البوّج القماش منهما، ووضعها فوق جمله، وساعد «يوسف» «إيرينا» في ركوب الحصان، وبدأت رحلتهما، «يوسف» ممسك بحصان «إيرينا» والجمل في يد الدليل بجانبه.

بدا الجو مللاً ورتيبًا جدًا، هل أمامهما يومان في هذا الصمت

المخيم والصحراء الواسعة أم هي أربعة أيام؟ لا يتذكر ما قالته «إيرينا» عن عددهم، اشتاق هو إلى تلك الرحلات التي كانت تنتهي في ساعات كحد أقصى، بدت الصحراء متشابهة جدًا كل الرمال سواء، كل الجبال سواء، كيف هو يعرف الطريق؟

هل للأدلة عين أخرى تطير في الفضاء لتخبرهم؟

«يوسف» ينظر إليها من وقت إلى آخر، الدموع تنهمر من عينيها، لم يجرؤ على السؤال قد ينكشف أمرهما، تلك الجميلة الجالسة على الحصان وسط كل تلك الرمال تحت أشعة الشمس الحارقة، فقدت الآن كل ما لها وما كان يوم لها في ذلك العالم، بدأ الأمر بالأب والأم وانتهى بالدار والأرض وذكريات في أماكنها، حبست تلك الصغيرة التي كانت تلعب بأمان وسط البيوت تهرب الآن من سكان تلك البيوت، لن يزيل الدمع همك ولكن يخبرك بأن كل شيء زال، حتى هو يزول من وجهك و من عينيك بمجرد الخروج، مسألة وقت وحسب.

تلك هي المعضلة دائمًا، نحن لا نلاحظ الوقت أبدًا إما ينفلت من بين أيدينا في لحظاتنا السعيدة أو نقبض عليه بقوة في لحظاتنا الحزينة، وتمر ساعات وسنوات ونحن ما زلنا في لحظة الحزن.

آسف لقد استقطعت وقتًا كثيرًا ولكنكم لم تروا دموع تلك الجميلة، مثل ما رأيتها المشهد، كلوحة فنية رسمت في منتصف عمر النهضة على يد الإيطاليين أو الفرنسيين، ولكن يفسدها صوت «عثمان» الدليل وهو يغني، كما يبدو شيئًا من السيرة النبوية، حاول «يوسف» إسكاته بالأسئلة ولكنه يعاود الغناء مجددًا.

قاطع «إيرينا» صوت «عثمان» وغضب «يوسف»، حين نظر في عينيها وقد اتسعت حدقتها، سمع صوتًا ما يقول داخله «غني يا يوسف» كان صوتًا ضعيفًا ولكن «يوسف» سمعه، ربما لم تتكلم وأخبره بهذا عينها ولكنه شرع في الغناء ،لم يكن صوت «يوسف» جميلاً ولكن كان صادقًا..

كان يخاطب «إيرينا» من الداخل:

يا ولدي! يا ولدي! سكت «عثمان» فور سماعه تلك الكلمات:

لا تبكِ فأحزانُ الصغرِ

تمضي كالحُلمِ مع الفجرِ

وقريبًا، تكبُرُ يا ولدي

وتريدُ الدمعَ فلا يجري...

يا ولدي! يا ولدي! يا ولدي!

إن سَهِرت أمطار معنا

أو غطى البرد شوارعنا

فالدِفءُ يُعَمِّرُ أضلُعَنا

ولهيبُ الأرضِ بنا يَسْري...

يا ولدي! يا ولدي! يا ولدي!

وإذا بَحَّتْ لك أُغنية

أو أنَت قدم حافيهٌ

فشموس رفاقك آتية

وستشرقُ من غضب الفقرِ
يا ولدي! يا ولدي! يا ولدي!
قد أُرْمَى خلف الجُدرانِ
وتحِنُّ لحُبّي وحَنَاني
فانظُر في قَلْبِكَ ستراني
لن يَقْوَى القَيْدُ على الفكرِ...
يا ولدي! يا ولدي! يا ولدي!
وإذا ما الدهْرُ بنا دَارَ
ومَضَيتُ إلي حَيْثُ أوارَى
أَكْمِلْ مِنْ بعدي المشوَارَ
لا تُخْلِفْ مِيعادَ الفَجْرِ...
يا ولدي! يا ولدي! يا ولدي!

كان يشعر هو بقوة غريبة بوجدانه بعد أن غنى، كانت تنظر له في اهتمام، بادر عثمان:

- أأنت شاعر؟

- لا. أنا تاجر.

- من أين أتيت بتلك الأغنية؟

- من حيث أتيت من القاهرة.

- اعذرني بما أنك تاجر وكثير الترحال، كيف لا تحمل سيفك؟

«سكت يوسف وأخذ يفكر كيف له أن ينسى تلك التفاصيل؟».

- كنت أعتمد على وجود حرس معي ولكن للأسف قتلهم اللصوص.

- حمدًا لله على سلامتك!

- الحمد لله علي كل شيء!

كانت الشمس تميل للغرب، بدأ في البحث عن كهف يأويهم، وجمع الحطب، بدأ الدليل بإشعال النار وبدأ «يوسف» في أخذ الطعام من «إيرينا»، أعطى الدليل قطعة خبز وبدأ يتناول هو الآخر بجواره، في حين كانت «إيرينا» تكور جسدها خوفًا وإرهاقًا بالقرب من «يوسف».

حينما وقف الدليل أمامهم مشهرًا سيفه في مشهد لم يعتده «يوسف» إلا في الأفلام القديمة سيئة الصنع، طالبهما بإبراز كل ما لديهم من أموال، وذهب، وحلي، ومتاع، كانت الصدمة ظاهرة على وجه «إيرينا» التي كتمت أنفاسها رعبًا..

بينما «يوسف» لم يكن مستوعبًا الموقف.

لم يتوقع أن تكون المتاعب منذ الخطوة الأولى، حينها اهتز جسد «إيرينا» بقوة وقد سقط عنها غطاء وجهها حينها صرخ الدليل «من؟ «إيرينا»! ابنة عنان المزارع، كنت تهربين مع ذلك الغريب، كنت أشك في أمركما منذ الوهلة الأولى، الآن سأقتلك هنا، وآخذ الذهب، وأسلمك أنت إلى خطيبك، وأحصل على هدية مقبولة منه، وقد أعمل معه في تجارته كجزاء لي على حسن ما صنعت، والآن أعطني كل ما تملك، أرى تلك الثنيات في نطاقك، أظن أنها مليئة بالذهب، ذهبك وذهب «عنان المزارع».

بدأ «يوسف» في التحرك قام ونفض عن يديه الغبار، فهتف «عثمان»، لا تبرح مكانك، وإلا قتلتك الآن، وأخذت الذهب بنفسي:

- لا تقلق سأعطيك كل شيء معي، هو ليس ذهبًا لكنه ثمين، أظن أننا سنعقد صفقة ناجحة الآن.

- هات ما عندك، فأنا أريد الحصول على كل ما أبغي الليلة.

وضع «يوسف» يده في النطاق وأخرج المسدس..

- انظر هذا الشيء اسمه مسدس ثمنه غالٍ جدًا.

- ما ثمن ذلك الشيء؟ هذه أول مرة أراه فيها!! ما ثمنه؟

- حياتك.

كاد يضحك «عثمان» إلا أن صوتًا يشبه الرعد صم آذانهم، وأخرس لسانه، وأسكت بدنه عن الحراك، وأخرج الدم من صدره في حيث إن خيط دخان رفيع خرج من المسدس.

ثبت الدم في جسد «يوسف»، وتحجرت عيناه على الجثة التي تفترش الأرض أمامه، يسيل منها الدم، القتل فعل شنيع؛ قالت ألواح «موسى» لا تقتل، ووصى «عيسى» بألا تقتل، وأمر «محمد» بألا نقتل إلا بحق.

أليس هذا حقًا؟ حق الدفاع عن النفس، حق النجاة.

لا يرى، لا يرى غير ذلك الدم، قدماه لا تعمل، يريد الجلوس..

«إيرينا» أين أنت؟ يريد الالتفاف، عيناه تخشى أن تواجه عينيها، استجمع تلك القوى الهاربة في جسده وأنزل المسدس أو بتعبير

أدق تركه يقع على الأرض، نظر إلى «إيرينا» وجدها مغشيًا عليها، نائمة على الأرض، مغمضة العينين، يديها على أذنيها في تشنج، بدا واضحًا على ملامحها، مال عليها محاولاً جعلها تفيق.

بعد محاولات نجحت لكنها كانت تنظر إليه في خوف لا تستطيع الكلام، تحرك فمها حركات مضطربة دون أن يخرج من بين شفتيها حرف واحد.

- لا تخافي، لقد مات، لن يؤذيكِ بشرًا ما دمت حيًا.

كانت لا تزال تحت تأثير الصدمة والفزع، تحدثت بصوت متهتك بصعوبة:

- ابتعد عني.

كان يحاول أن يتحدث ولكن الكلمات تهرب منه، لقد قتل للتو رجلاً، وها هي «إيرينا» لا يفهم ما بها، ترك «إيرينا» جانبًا، واتجه نحو الجثة الثقيلة، يحاول سحبها من قدمها إلى الخارج، نجح بعد عدة محاولات، نجح أخيرًا.

عاد إلي «إيرينا» وجدها تنتفض وعينيها تتحرك في حركة دائرية غريبة، تحاول عبثًا، مد يدها له، لكن يدها تسقط، وكذلك جفناها يغلق وتذهب في سبات تام.

حاول قياس النبض لها، لا يعرف كيف؟ ولكن يشعر أن دقات قلبها ضعيفة وبطيئة، لم ترحل بعد، جلس على الأرض، ووضع رأسها على فخذه، ونزع عنها حجابها في أمل أن يفتح للهواء مساحة أكبر؛ كي يمر داخلها، ظل واضعًا يده على رأسها، ويحرك يده ببطء مرددًا

اسمها في يأس لعلها تفيق، لكن هذا لم يفلح، جهازها العصبي كان أضعف مما حدث.

حلمت بالهروب فهربت، ثم وجدت نفسها قاب قوسين أو أدنى من أن تموت، أو تعود لما هربت منه، ثم انتهى الأمر بأن سقط أحد أطراف النزاع قتيلًا.

أعاد «يوسف» ترديد الكلمات، لم تكن اسمها تلك المرة بل كانت اسم الله وبعضًا مما حفظ من كتابه، وأدعية أخرى ربما حفظها من والدته؛ حيث كانت ترعاه وهو مريض، وظلت عالقة في ذاكرته، بدأ يهدأ، وبدا أبطأ فأبطأ حتى تملكت منه السكينة، وراح في سبات هو الآخر، لم يفق إلا في الصباح؛ حيث أزعجه ضوء الشروق من باب الكهف، وجد نفسه نائمًا على ظهره، ولا تزال «إيرينا» نائمة على فخذه، ظل يحاول جاهدًا حتى أقام ظهره دون أن تتحرك قدماه، كان يشعر بالألم في كل أطراف جسده، حاول إيقاظ «إيرينا»، وبعد عدة محاولات أفاقت، ولكن عاد الرعب إلى عينيها وملامحها مجددًا، تلمست رأسها فلم تجد الحجاب..

- مَن خلع حجابي؟!

- أنا، اهدئي كنت مريضة وبحاجة إلى بعض الهواء ففككته؛ حتى تتنفسي بشكل أفضل.

- أنت قاتل، ذلك السحر لن يجلب إلا الشرور.

- لم أكن أقتله، كان سيقتلنا، هذا دفاعًا عن النفس ومشروع بالدين.

- الآن نحن مطاردان وتائهان، ماذا سنفعل؟

- مطاردان لماذا؟

- أتظن أن أهله سيتركونا دون قصاص.

- من يعرف من نحن؟ هو ذاهب إلى القاهرة، سينتظرون ولن يعود، وإن عثر على جثمانه حتى بالصدفة لن يعرف أحد أنه كان معنا، هو كان مع تاجر من القاهرة، ليجلبوا هذا التاجر إذًا.

- ولكن أخاه رآك وسيبحث عنك في القاهرة.

- نحن لن نكون هناك، نحن في الفسطاط، اهدئي أرجوكِ، لن يعرف أحد، ثم إن الله شاهد على ما نحن فيه.

- الله. فليغفر لنا، ويحمينا، ويهدنا الطريق.

- لا تقلقي سنصل.

- كيف أنا لا أعرف الطريق وأنت لست من هنا؟!

- كنا نسير وكان الجبل على يميننا، على كل حال إن اتبعنا السير وهذا الكهف خلف سنصل إلى النيل في أسوأ الأحوال.

- وكيف تعرف؟

- الشمس أشرقت من هنا، ونحن في الغرب، سنسير شرقًا حتى نصل إلى النيل، وعندها نسأل، هذا إن لم نصادف قافلة في الطريق أو قرية ما، ومعنا طعام، وجمل، وحصان.

- سنسرق الجمل أيضًا؟

- لا نتركه يموت بجوار صاحبه، حين نصل نبيعه، ونجعل النقود

صدقة على روح صاحبه؛ لعلها تخفف عنه عذاب ما كان سيفعله بنا، هل هذا الأمر يريحك؟

- أشعر بألم في رأسي عجيب.

- معي دواء يمكنك تناوله.

أخرج من جيبه حبة لونها وردي لامع وأعطاها إياها مع الماء:

- بعد دقائق ستصبحين بخير وسنرحل.

- ألن ندفن الجثه؟ إكرام الميت دفنه.

- سأحاول دفنها، لكن بماذا قد أحفر؟

لم يجد ما يحفر به، فكوم عليه الرمال حتى غطاه، ودحرج صخرة، ووضعها عند رأسه كشاهد قبر، ومن داخله لم يستطع أن يدعو له بالرحمة، بل ظل يلعنه بكل اللغات التي يعرفها على ما فعل، ووضعهما فيه، أنهى الأمر سريعًا، وساعد «إيرينا» على ركوب الجمل، وربطه بالحصان، وركب الحصان، وتابعا السير وسط الرمل، لا جبال قريبة، ولكن رمال في رمال، لم يكونا يتحدثان، صمتهما على صمت، الصحراء قد تميتك، الحر يأكل جساديهما بالعرق، الشمس تلفح الوجوه..

يحاولان الإسراع عبثًا بلا أمل، رمال في رمال، والشمس تقترب على المغيب، وظهرت في الرؤية وكأنها مجموعة من الجبال متجاورة تميل شمالًا عن خط الشروق.

صاحت:

- الحمد لله أظن أنها الأهرمات الخاصة بالجيبت.

- رأيتها في صغري منظرًا لن أنساه، هناك قرية قريبة منها ليسوا مسلمين وأنا أخافهم، يعبدون الأصنام، أرجو أن نصل قبل المغيب.

- كم سيأخذ الطريق؟

- لا أعلم، الشمس قاب قوسين أو أدنى.

- سنسرع ونحاول، ولكن كيف سنسير في الظلام؟

- أليس في جعبتك النار البيضاء التي أخرجتها لنا آخر مرة؟

- أجل. معي هنا، أظن أن به ضوءًا يكفينا لثلاث ساعات أو أربع، إنه ياباني الصنع.

- لا أفهم، ولكن سيكفي، أليس كذلك؟

- أجل. لكن علينا ضبط الحصان والجمل حتى لا يحيدان عن الطريق، بعد الغروب لن نرى.

- بعد الغروب ستكون نار القرية بادية لنا إن اقتربنا.

- لندعو الله أن نصل.

تابعا الترحال، والشمس تابعت رحيلهما مع الغروب، كان يضيء المصباح، وربط الجمل والحصان من الأمام والخلف حتى يسيران في حذاء بعضهما البعض، لا يسبق أحدهما الآخر، وتناوبا على حمل المصباح.

بعد المغيب كانت الصحراء أكثر صمتًا قاحلة، لا يرى إلا في حدود الضوء، كان يرتجف من الرعب داخليًا وهي أيضًا، قطع يوسف الصمت:

- حدثيني أكثر عن تلك القرية.

- لا أذكر الكثير، فهم لا يتحدثون لغتنا، ويكرهوننا، لقد حاول الخليفة البغدادي مرة قتلهم وسرقة كنوز معابدهم التي رأيناها.

- تقصدين الهرم؟

- أقصد تلك الجبال المتجاورة هناك، ولكنهم فروا منه، وعاودوا بناء قريتهم بعد عام. هم لا يزورون ولا يُزارون، لكن قال لي أبي إنهم مسالمون، وأنهم أكرموه حين نزل بهم ضيفًا ذات مرة، وساعدوه حين ضرب السيل قافلته.

- هل هم من أبناء فرعون موسى؟

- أظن ذلك، لكنني لست متيقنًا، هناك من يقول بهذا.

- حتى لو كانوا أبناء الشيطان ذاته، سنطلب مساعدتهم، فهم نجدتنا الوحيدة الآن.

قطع حديثهما عواء الذئب من حولهما، كانت «إيرينا» تتلو القرآن من رعبها، وتدعو بصوت عال، حينها أخرج «يوسف» شمروخًا من إزاره، وأغلق المصباح، وسحب الفتيل، ورفع يده إلى أقصى ما يمكنه. في تلك الحظة كانت القرية جلية للناظرين بضوئها، تصاعد الضوء الأحمر، والدخان من الشمروخ، كان يصدر صوت فرقعة خفيفة منه، قال لها إن الحيوانات لن تقترب منهم الآن، يخافون النار، وإن اقتربوا سيقتلهم بمسدسه، لكنها ما زالت تقرأ القرآن وتدعو الله أن يحميهما..

أسرع السير حتى بقى على مشارف القرية، وكانت أكثر وضوحًا،

ظهر أشخاص بالرماح واقفون عند الباب، أطفأ المصباح، ومضي في بطء حتى لا يزعج أهل القرية التي بدت أصواتها واضحة غير مفهومة.

تقدم لهم أحد الواقفين عند الباب، وخاطبهم بلغة غريبة، لم يفلح «يوسف» في الحديث معه ليست عربية ولا هي لغة معروفة له، حاول «يوسف» إخضاع الأمر للغة الإشارة، فلم يفلح، فتحرك أحد الثلاثة الذين كانوا يبدون كحراس بأمر من شخص فيهم، يبدو قائدهم واستدعى أحدًا ما من الداخل، استغرق الأمر وقتًا، لكن حين أتى، بدا في الكلام مخاطبًا «يوسف» بالعربية الواضحة:

- السلام عليكم!

- وعليكم السلام!

- مَن أنت؟ ولمَ أنت هنا؟ ألا تعرف أنه محرم عليكم المجيء إلى هنا بدون أمر رع؟

فطن «يوسف» أنه الآن ربما يحدث آخر نسل الفراعنة العظام.

- أنا «يوسف». أتينا من الفيوم، ونحن تائهون، ونريد العودة إلى القاهرة، ولا يوجد غيركم في هذه الصحاري لنحتمي به.

- حسنًا. سنحميكم حتى الصباح، لكن محرم عليكم الدخول إلى القرية، أو الاختلاط مع ساكنيها، أو الاقتراب من النار المقدسة، أو الماء.

- نحن رهن أمرك سيدي!

- ستنامان هنا «وأشار إلى كوخ صغير على يمينه» في ضيافة رع الراعي والحامي.

- الشكر لك سيدي! ولرع العظيم ولجيبتو الجد العظيم.

- من أين عرفت بجيبتو أيها العربي؟

- قرأت عنه الكثير في الكتب، وأكن لكم كل التقدير والاحترام.

- اذهب للنوم الآن، ولي معك حديث آخر أيها الغريب!

- اسمي «يوسف».

- يو ساف، حسنًا.

عاد للخلف خطوة، وبدأ في الحديث بتلك اللغة الغريبة مع أحد الحراس، ثم أخذهم الحارس إلى الكوخ، وأشعل لهم النار في المصابيح، ورحلوا.

الكوخ كان يحتوي على سرير أرضي فقط فتحدث إليها «يوسف»:

- الحمد لله الذي أنقذنا.

- هل أنت منهم؟

- ممكن أن أكون من أحفادهم، هم الحضارة الأولى بمصر.

- أنت مسلم أليس كذلك؟

- أجل. أنا مسلم سني، لا تقلقي، أعرف عنهم القليل من الكتب فقط، هيا حاولي النوم الآن، لدينا رحلة شاقة غدًا.

- وأنت؟

- لا أرغب في النوم، أشعر بشيء عظيم داخلي، لقد قابلت إنسانًا من قوم يمجدهم العالم كله في عصري، أعتقد أن هذه الأصوات صلاتهم للآله.

- يعبدون الأصنام أليس كذلك؟

- كلا. إنهم يعبدون الله إلهًا واحدًا يرمز له بقرص الشمس الراسل أشعته إلى الأرض محملة بالخير، ولا يعبدون الشمس.

- لماذا لم يؤمنوا إذًا بمحمد ويعبدون الله معنا؟

- لقد خلقنا الله مختلفين وله حكمة في ذلك.

- عبادة الله هي الغاية، في أي شكل كانت.

لم تمر لحظات كثيرة حتى أتى الرجل مجددًا وطرق الباب، ففتح له «يوسف»، فأمر الحرس بإدخال أطباق من الطعام طبق لكل فرد وإناء به اللبن فتحدث الرجل مع «يوسف»:

- أنتم محظوظون، لقد انتهى الصيام للتو، ستأكلون من الطعام المقدس لرع هذا، هو الكوشير ومعه اللبن سائل الحياة الثاني، كلوا و ناموا في حماية رع حتى الصباح.

- شكرًا لك سيدي، لكن هل لديك مانع في أن أتابع صلاتكم لرع.

- هل تعبد رع؟

- أليس هو خالق الكون؟ أنا أعبد الإله العظيم خالق الكون، لكن ليس على طريقتكم.

- أنت عربي مسلم على ما أظن؟

- أجل. سيدي!

- أهل القرية لا يثقون بكم كعرب، لا أستطيع طلب هذا الأمر من الزعيم، أرجو أن تحافظ على اتفاقنا بالتزام الكوخ حتى الرحيل.

- أعتذر سيدي!

- ادخل إلى الكوخ، السلام عليكم!

- وعليكم السلام!

غادر الرجل، ودخل «يوسف» ينظر إلى الطعام، طبق به قمح، وفول، وعدس، وحمص، وثوم، وبصل، وقد تم طهوه على النار، وهو ساخن، وطبق حليب بارد.

- ألن تأكلي؟

- لا آكل طعام الغرباء، لا أثق بهم كما لا يثقون بنا.

- معنا طعام لكِ أنتِ، وسوف آكل أنا طعام أجدادي.

لم ترد عليه، وأخرجت الخبز من جعبتها وبعض الجبن، وأخذت تأكل في صمت.

كان الطعام شهيًا جدًا، كان يحاول حثها على تذوقه، ولكنها أبت، فأكل الطبقين، وشرب اللبن البارد بلاسكر طعمها جميل يختلف عن ذلك السائل الأبيض الذي يباع لديهم في عصرهم باعتباره لبنًا.

شعر وأن جسده أثقل بعد الطعام، جلس يستمع إلى صلاتهم التى تصل إلى أذنه، كانت «إيرينا» قد نعست على السرير، ظل جالسًا يستمع حتى غلبه النعاس.

* * *

مع أول خيط للنهار استيقظ على صوت قرع لباب الكوخ، أحتاج لحظات حتى عادت له ذاكرته ولكنه فتح.

- هل أنتم مستعدون الآن للرحيل؟

- بلى. زوجتي لا تزال نائمة، هلا تحدثت معك قليلًا.

- أجل. تفضل.

جلسا على باب الكوخ على صخرتين على يمين الباب كمقعدين.

- كنت أسمع صلاتكم من الداخل، هل يمكن أن تحدثني عنها؟

- نحن نقدس الإله رع، وندعوه أن يديم نعمته علينا.

- هل يمكنني أن أرى أهرامكم؟ لقد قرأت عنها كثيرًا، وقرأت أيضًا عن الملك المجنون الذي حاول اقتحامها لقتلكم.

- لم يستطع - ذلك الملك - سوى أن يفتح فتحة صغيرة مات رجاله داخلها، وعاقبه الإله رع على تجرأه على ملكه، ومات ودفن في دولته. لكن، لماذا تريد أن ترى الأهرامات؟

- سيدي، أنا مثلكم أقدس رع العظيم، وأريد التقرب منه، وأريد أن أرى عظمة أحفاد جيبتوا العظيم.

- حسنًا تعال معي.

أشار إليه فركب حصانًا، وانطلقا معًا حتى اقتربا من الأهرامات.

رأى «يوسف» الأهرامات أكثر من مرة، مما أكد يقينه من أن تلك الأهرامات التي يراها لا تمت لأهرامات الجيزة بصلة.

كان الهرم يظهر بلون وردي زاه، تلمع فيه خيوط الذهب تحت أشعة الشمس المشرقة، كان يبدو، كحرم أرضي مقدس ببهائه وزينته قبل أن يعبث به الزمن وأيادي الطامعين، كان يمسك بسرج فرسه

في غير إحكام، مشدوه النظر، وكان الهرم قد خطف نظره، يسير بلا كلام، صمت يشبه صمت الصحراء، وصمت يشبه قدسية ونقاء مهابة المشهد الناظرين، هذا هو الصمت الذي هو حرم الجمال جمالًا، اقتربا أكثر، فوجد تمثالاً، جالسًا في يديه حربة، أبيض العينين يثير الرعب إذا نظرت في عينيه، وكأنه الموت محدق إليك، ظل يردد «الله! الله! الله!» وكان قد عقد لسانه عليها، فور وصولهم إلى محيط التمثال، ردد الرجل في أدب وخشوع كلمات بلغته الغريبة فنظر إليه «يوسف».

- علمني ما تقول.

فأعاد الرجل الكلمات بالعربية:

- «السلام عليك رع! يا سيد الكون الوحيد! ومصطفى العباد على الكون كله! أتينا لنرى نور بهائك على الأرض، مما صنع أحفاد جيبتو الجد العظيم، كلمتك في الأرض وذراعك، ومعي ضيف، فهل لنا الأمان والسلام؟».

كان «يوسف» يشعر بأنه في حلم أو في فيلم جيد الصنع من أفلام هوليود، سحر المكان لا يضاهي سحر ما ذكرت الكتاب، أو رحلته العجيبة مع تعويذته بأكملها، اقترب أكثر من الهرم، كان وردي اللون، أملس السطح، تزينه زخارف من كلمات فرعونية بالذهب زاهية اللون، ألوانها كأنها لم يمر عليها ساعة، تبدو زاهية وجميلة جدًا.

قطع الرجل بحار الصمت محدثًا «يوسف»:

- من أين عرفت بجيبتو العظيم؟ ومن أنت؟

كان «يوسف» في حيرة من أمره، أيخبره الحقيقة أم يدعي ما دعا منذ قدومه أنه من ذلك العصر؟

- أنا تاجر من القاهرة، وأبي كان تاجرًا، ولم أخرج منها يومًا، فهذه أول مرة أغادرها. كانت رحلتي صعبة، وقد أغار عليّ اللصوص، وقتلوا من كان معي، ولم ينج سواي وزوجتي.

- أين حدث ذلك؟

- بعد الفيوم بمسيرة يوم وأنا عائد.

- من أين عرفت الجد العظيم جيبتو؟

- قرأت عنه في الكتب، وسمعت عنه حكايات يتداولها الناس.

- ماذا قرأت عنه؟

- أنه الجد العظيم لهذه الحضارة التي قامت، ومؤسسها، وهو الذي بدأ الحياة في وادي النيل العظيم، وعابد رع الرب الواحد خالق الكون.

- وأنت من تعبد؟

- كلنا نعبد خالق الكون في أشكال وأفعال مختلفة.

- هل تعبد رع إذًا؟

- أعبد الإله الواحد خالق الكون الذي كان قبل أن يكون شيء.

- تبدو حكيمًا، ولا تشبه هؤلاء المعتدين على جنة الله جيبتو، يقولون إننا لا نعبد إلا الشمس والأصنام.

- أعلم أنكم لا تعبدون ذلك، أعلم أنكم تعبدون رع الخالق الذي أنار الشمس من نوره، وجعلها بهاء السماء، وأنار لكم الليل بالقمر، وزين السماء بالنجوم، صدقني، إلهي وإلهكم واحد خالقنا واحد.

- لا تبدو كتاجر، بك حكمة جبيتو ونارمر.

- نارمر! موحد الأرض، وسيد النيل العظيم، هذا شرف لا أدعيه لنفسي.

- هل تقبل ضيافتنا ليوم آخر؟ أريد أن يراك الزعيم «دبجن» وزوجته «هاجار».

- هذا شرف، أرجو أن أناله، ولكن هل لي أن أعرف الآن معنى صلاتكم حول النار البارحة؟

- نحن ندعو لرع، ونقدسه بعد انتهاء الصيام، ونقول «أنت رع العظيم، أنت آتون الحي رب الأبدية، إنك مشرق وذو بهاء، ونورك يملأ الآفاق، نقدسك نحن، فأنت واهب كل شيء، نورك هو نور لعيون جميع البشر والدواب، وألوانك المبهجة هي التي تعطي الورود والبراعم ألوانها، أنت يا رع الإله الذي خلق نفسه بنفسه، وكان قبل أن يكون شيء، أنت باعث الحياة في الجنان وثمار الأرض، يا ربنا العظيم! لك المجد في الأعالي، هيلا هيلا هيلا».

- تشبه جدًا ما أدعو به و أقدس به الإله.

- هل نعود الآن؟

- أجل. فبالتاكيد زوجتي خائفة، كانت نائمة عندما خرجت، ولا تعلم ما حدث لي.

- حسنًا امطتي حصانك، وهيا.

عاد مسرعًا إلى الكوخ في أول القرية، ودخل «يوسف» على «برينا»، فوجدها جالسة في ركن يبدو على وجهها الرعب، وفور دخوله انتفضت:

- أين كنت؟ لم أجدك، ظننت أنهم قتلوك.

- لا تقلقي، إنهم أناس طيبون، كان يريني الأهرامات، ويريد أن ألتقي بالزعيم، وأن نبيت ليلة أخرى، وسيدبر لنا رحلتنا حتى القاهرة.

- وبماذا أجبتهم؟

- قبلت بعرضهم، فارتحالنا تحت حمايتهم سيكون بالتأكيد أفضل.

- ماذا يريد الزعيم؟

- لا أعلم، ولكني أنوي أن أحكي له حكايتي بصراحة، وأنني من زمن آخر.

- أجننت! قد يظنون أنك ساحر ويقتلونك.

- أعلم عنهم الكثير، ويؤمنون بالسحر والمعجزات.

- افعل ما شئت، ولكن لا تبوح لهم إلا بعد أن تلمس منهم الأمان.

- فليكن الله معي يحميني ويرعاني!

قاطعهم صوت طرق الباب، ذهب وفتح، فكان الرجل على الباب:

- هل أنت مستعد لملاقاة القائد الآن؟

- أجل. مستعد.

- هو يريدك وينتظرك عند النار المقدسة.

ترجل «يوسف» خلفه بخطوة حتى النار، وحياه الزعيم «دبجن» الذي كان يجلس عند النار، وبجانبه زوجته، يرتديان ثوبًا من الكتان، وزينة امرأته لم تكن تخفي ذلك القلق في عينيها، فرد الزعيم التحيّة بعربية فصيحة ثم شرع في الحديث:

- أعلم أنك عربي مسلم، مثل هؤلاء الطائفة، ولولا أن «كاي» حكى لي عنك وعما تلمسه منك من العلم لَمَا حظيت بشرف لقائي.

- أشكر عطفك المبجل أيها القائد دبجن! ولي عظيم الشرف أن ألتقي بأجدادي.

- أتدعي أنك من نسلنا، أيها العربي؟

- هلا أذنت لي في الحديث معك على انفراد.

- أنت الآن على انفراد، هذه زوجتي الملكة، وهذا وزيري، فلتقل ما عندك، كيف لك أن تدعي هذا الشرف؟

تحدث «يوسف» بصوت مرتعش، لا يعلم ما الذي وضع فيه نفسه بتسرعه هذا، ولكن معه كل الحق، هذه أشياء لا تحدث في العمر مرتين، في حالته هو لا تحدث مطلقًا في العمر.

- أنا لست بعربي، ولست من هذا المكان، ولا حتى أنتمي إلى زمنكم، أنا قادم من المستقبل، ولدي أدلة على ذلك.

لم يدر «يوسف» ما يقول بعدها؟ فصمت، دام الصمت لحظات تبادل فيها الملك، وزوجته، والوزير، النظرات عدة مرات، بعدها

انفض الجميع، وبقي هو والملك وحدهما، وثالثهما النار المقدسة، وعلى بعد منهما يقف عشرة رجال مدججين بالرماح، يصوبون أنظارهم إلى المشهد من بعيد، وقطع ذلك المشهد الصامت «دبجن»:

- هات ما عندك، ولكن إن كنت تكذب فلن تخرج من هنا حيًا.

بدأ «يوسف» في سرد القصة كاملة دون نقصان، قال له إن الكتاب معه في الكوخ إن أراد أن يراه، ومعه سلاح من المستقبل، وأدوات تشع أنوارًا وهاجة، وكأنها شمس صغيرة، وأخرج المسدس، وحينما رأى «دبجن» الطلقات وتلمسها، أمره بأن يخبئ ذلك الشيء الآن، ثم بدأ في الحديث:

- كنت أعلم بقدومك، حدثني أبي عن ذلك، وأوصاني أبي، كما أوصاه جدي بأن أساعدك إن ظهرت، لا أعلم لماذا أتيت أو ما ستفعله؟ ولكن لدي إيمان بك وبأنك سيكون لك اليد العليا في أرض جيبت، وستجدني أنا وكل جبتيّ رهن إشارتك في حال احتجت مساعدتنا.

تفاجأ «يوسف» بتلك الكلمات، لم يكن يظن أنه مكشوف هكذا، أو أن أحدًا يعلم عن الكتاب غير «إيرينا»، ولكنه الآن أمام فرصة عظيمة عليه استغلالها.

- مساندة أجدادي لي شيء عظيم، أنتم أجدادي، ولن ألجأ إلى أحد سواكم، يحميني على أرض جيبتو العظيم، لكني لا أحتاج الآن إلا إلى من يوصلني بأمان إلى الفسطاط أو القاهرة.

- لك ما طلبت أيها الجبيتي الطيب! بت الليلة معنا، وغدًا أوفر

لك من يوصلك بأمان إلى هناك، ولكن لا تحدث أحدًا بما نحدثنا به الآن.

- هل لي أن أستأذنك في الذهاب الآن؟ لكي أُطَمْئِنَ زوجتي، هي تخافكم، ولا أريد أن أقلقها أكثر.

- بالطبع. اذهب لها الآن.

- لا أجد كلمات أعبر بها عن فخري وحبي لكم أيها العظيم! ائذن لي بالانصراف الآن.

- تفضل.

تحرك حارسان نحوه، ورافقاه إلى حيث الكوخ، فطرق الباب ودخل عليها، علامات الخوف كانت بادية على ملامحها، وجلستها المتكورة في ركن الحائط على السرير، تقدم إليها، فغيرت تلك الوضعية، وأنزلت قدميها من فوق السرير، وبادرت بالسؤال..

- ما حدث؟ هل أخبرتهم؟

- بل أخبرني.

- بماذا أخبرك؟

- أخبرني بقصتنا وأنهم على علم بأنني قادم.

- إذًا هم مصدر هذا الكتاب اللعين، كنت أعلم أنهم أهل سحر وشرور.

- اهدئي ودعيني أكمل، فأنا خائف أكثر، وأريد أن أفكر.

- أعتذر منك. قل لي ماذا حدث؟ ودعنا نفكر معًا وعلى الله التدبير.

- قالوا إنهم على علم بقدومنا، وأنهم لديهم وصية يتوارى صونها من جدود جدودهم على حمايتنا ومساعدتنا، متى ظهرنا؟ وقالوا أشياء لم أفهمها عن إني سأغير وجه أرض جيبت وسأرفع الحق، وأعيد بهاء رع على أرض جيبت، وأن تكون لي الكلمة العليا.

قاطعهما طرق الباب، وإذا بالوزير يدخل بعد أن أذنوا له، وضع صندوقًا على الأرض أمام «يوسف»، كان زاهيًا بألوان ورسوم ذهبية:

- هذا ما أوصانا جيبتو بإيصاله لك، سيحميكما ما في داخله من كل الشرور، ارتاحوا الليلة وغدا سترحلون إلى حيث أمرت سيدي!

عينا «يوسف» تنظر في انبهار لما بين يديه، بينما عينا «إيرينا» قد لمعت خوفًا ورهبة، هذا الإجلال الذي يتحدث به الوزير «كآي» يوحي بأن هناك شيئًا ما بالداخل، ما زالت هي تخشى من سحرهم، وما زال هو مفتونًا بما يرى، في شغف طفولي فتح الصندوق.

كان يحوي قلادة زاهية الألوان والنقوش، وخاتمًا ذكوريًا ذا فص أحمر كبير، عليه نقوش من الذهب، تلمع وسط لونه الأسود قطعة من الليل نسجت بها الشمس، فأدخل الخاتم في إصبعه حينها انتفض جسده، وشعر بقوة وطاقة غريبة تتلبسه، فخلعه على الفور، وجلس على السرير مشدوها لما جرى، قضت «إيرينا» اليوم نصف واعية، نصف نائمة، تتقلب بين حالات النوم والاستيقاظ في سرعة غريبة وتمازج، لا يجعل عقلها يفرق بين الحلم والحقيقة، تخلل ذلك أحلام غير مفهومة وغير منضبطة عن كل حياتها حتى تلك اللحظة.

وفي تلك الأثناء كان يوسف يجالس «كاي» الوزير يتحدثان عن حياة أجدادهم ودينهم، وأخبر «كاي» «يوسف» بأنه مؤمن به وبمصيره، وأخبره بأن يكون حذرًا أن يرى الناس وجهه، فصاحب النبوة لا يكبر ولا يشيخ، والموت لن يطرق بابه هنا، فلا مكان له في غرب جيبت.

كانت مشاعر «يوسف» وأفكاره مشوشة بين روعة الحكايات والخوف من المجهول، لم يسرد له أحد النبوءة بشكل كامل مطلقًا، وما ذكر كله جميل جيد، لن أصيب بمكروه، هذا رائع، لن أكبر أو أشيخ، هذا جيد، لن أموت هنا، لا يوجد أفضل من هذا. ولكن ما المقابل؟ لماذا لي كل الامتيازات تلك؟ ماذا سأتحمل كي أحصل عليها؟ كان يفكر في الثمن، ما ثمن كل هذا؟ في النهاية يعلم أنه عليه الدفع، الحياة ليست مجانية أبدًا، الحياة ليست اليانصيب، عليك دائمًا أن تدفع؛ كي تحصل علي أي شيء، حسنًا. هو لم يطلب الحصول على كل هذا لكي يطالبه أحد بالدفع، لكن خبرته الصغيرة في الحياة علمته أن لا شيء مجاني مطلقًا.

بادر بسؤال «كاي»:

- وما مقابل كل هذا؟ ماذا علي أن أتحمل سيدي؟

- لا يوجد مقابل، لقد اختارك رع العظيم.

- وبعد أن اختارني، ماذا يريد مني أن أفعل؟

- تلك أسرار الكهنة، أنا لا أملكها، ولكني أعرف أنك ستعرف في الوقت الذي يريد الإله أن يخبرك. ألن تنام قليلًا؟ غدًا ستكون

رحلتك، قد تشعر ببعض المشقة.

- كم سنحتاج من الوقت إلى الفسطاط؟

- ستصل قبل غروب الشمس.

- حسنًا. سأحاول النوم.

- هيا، عد إلى الداخل، وغدًا سأوقظك مع أول خيوط الضوء.

عاد إلى الداخل بخطوات متثاقلة جسده القوي لا يقوى على حمل ثقل الأفكار في رأسه الآن، بات ليلة، يراقب الخاتم في يديه، كانت هناك دومات تسحب الأفكار من رأسه إلى الداخل أكثر، كلما أمسك فكرة سارعت إلى الهروب، بدا الهواء أثقل من أن يتنفسه، وعضلات جفونه أضعف من أن يظلا مفتوحتين، ذهب في النوم، أو أن النوم قد خطفه من كل ما هو فيه.

مع خيط النور الأول الذي وهبته الشمس إلى الأرض كان «كاي» يطرق باب الكوخ بنفسه؛ كي يوقظ «يوسف»، انتبه «يوسف» من الطرقة الأولى، كان نائمًا وهو جالس على الأرض، وإلى جانبه كانت «إيرينا» على الفراش متيقظة، فسألها إن كانت مستعدة للرحيل، فأومأت برأسها أي نعم، فتح «يوسف» الباب، وجد أمامه «كاي»، على وجهه ابتسامة خفيفة، ويخبره بأن المعظم «دبجن» يريده، فساروا جنبًا إلى جنب حتى موضع النار، كان «دبجن» يقف بلا حرس، فور أن رأى «يوسف» تقدم إليه خطوتين، بدأ في الحديث دون مقدمات أو حتى إلقاء التحية:

- اليوم سترحل عنا يا ضيف رع العظيم! ولا أعلم إن كنت سأراك

مجددًا أم أني سوف ألقاك في غرب جيبت؟ ولكن حتى ذلك الميعاد، حتى أعود إلى مملكة الغرب الأزلية، عليك السلام من رع العظيم! و لك عندي الطاعة التي أمرني أبي بها لك، وإني وكل ما تحت كلمتي في جيبت تحت كلمتك، وهذا العهد مني ومن أجدادي إلى أولادي وذريتي حتى يتم العهد والنبوءة، أعلم أنه لا مكان لك في الغرب هنا، ولكني أعلم أن جنود رع سيتقابلون في الحياة الجديدة في النعيم، فأرجو أن ألقاك، والآن سيدي! سيأخذك المركب من هنا إلى بداية الفسطاط، لا نستطيع أن نتوغل أكثر من هذا، فسامحنا، ولا تخبر أحدًا بأمرنا، الرعاة، والعسكر، والعرب قوم سوء سيقاتلونك حتى آخر رجل منهم، فلا تحرك ساكنًا حتى يرسل رع رسالته إليك.

بدأ الهواء يثقل من جديد على رئتي «يوسف»، وكانت هناك دمعتان محبوستان بين أجفانه، وبعض الأصوات المحبوسة في حلقه تمنعه الكلام، بدا صامتًا، وساكنًا، متسع العينين، وكأنما أصيب بصاعقة أو توقف قلبه، بعد محاولات قليلة لاستعادة التنفس، تبعتها محاولات لإخراج الكلام من حلقه المثقل بالكلمات، تلعثم في كلمتين أو أكثر، ثم بدأ يمسك بزمام لسانه قائلًا:

- كان شرفًا لي أن أقابل أجدادي أيها المعظم «دبجن»! أقدر كل تلك الآمال المعلقة على أكتافي، كنت أود البقاء معكم إلى الأبد، ولكن مَن يدري ماذا سيحدث؟ ولكنكم هنا أهلي، ونسلي، وحمايتي، أعدك سأعود قريبًا وسنلتقي مجددًا.

مد «يوسف» يده بالسلام، فأمسك «دبجن» بساعده لا بكفه، وجذبه ليتعانقا، وهمس في أذنه الآن، لدي أخ أتى من عند رع الآن، لدي «يوسف».

أنهى «كاي» المشهد الدرامي بأنهم عليهم التحرك الآن، حتى لا تغيب عليهم الشمس وهم في النيل: لأن حينها سيصير الأمر خطيرًا، فتحركوا على الفور إلى الكوخ، وأخذ «إيرينا» ومتاعها، وقد ركب «يوسف» و«إيرينا» الحصان والجمل، وسارا خلف «كاي» وثلاثة من رجاله، خرجوا من القرية وخلفهم الأهرامات، ومن أمامهم تبدو السهول الخضراء شاسعة، كان الأمر بالنسبة لـ«يوسف» أشبه بأفلام الأساطير، تلك المساحات الخضراء التي بلا مالك، والتي يهرب خلالها الفرسان دومًا، كان اللون الأخضر ممتدًا أمامه كبساط ناعم، وافق المنظر، ينتهي عند صفحة الماء التي تعكس أشعة الشمس الأولى للصباح في رقة وتناغم المشهد، كلوحة بديعة الشكل يخرج منها موسيقى بصوت العصافير ودقات حوافر الأحصنة على الأرض.

«يوسف» كان يسير مسحورًا بما يرى، انتهى الفضاء الأصفر، وشرع في السير بين الحقول، الأمر لم يستغرق وقتًا كثيرًا حتى وجد نفسه بحصانه أمام قارب لم يكن قاربًا كما تخيله بل كان أكبر، أكبر بشكل ما يجعله مناسبًا لحمل الدواب معهم، ودَّعه «كاي» قبل الدخول للقارب، الجمل أولاً وتم ربطه، ثم الحصان و«يوسف» مر، وأمسك بيد «إيرينا» حتى تعبر، كانت تبدو خائفة من المركب، بدأ ستة من الرجال في التجديف دون أن يتحدثوا بأي كلمة، النيل يبدو أكثر اتساعًا مما هو عليه في عصر «يوسف»، مرت ساعات عليهم وسط الحقول الخضراء التي تحيط بهم من الجانبين، وعندما كانت الشمس فوق رؤوسهم بدأت أشباح مدينة كبيرة في الظهور فصاح:

- هل وصلنا؟

- ليس بعد، إننا في القاهرة.

- ياالله!! أكانت تمتد إلى النيل؟

- بينهما وبين النيل جنة وخندق ماء.

صمت «يوسف» فجأة، كما تحدث فجأة، كان يتابع السور الكبير الذي كان علوه يزداد كلما زاد في الاقتراب، مر الوقت، وصاروا مجاورين له، وبدا السور جميلاً بكل تفاصيله وبهائه، القاهرة بأسوارها العالية كالوحش المُرابط على ضفاف النيل، شموخ، ورهبة، وهيبة تجتاحك بلا سبب واضح، غير أنك في حضرة القاهرة، السور، والبوابة العالية، والحرس، والجسر أمام الباب.

لم يلاحظ «يوسف» أن مجرى النيل صار أضيق هنا إلا بعد مدة، هم الآن في خليج أمير المؤمنين، يلتفون عبر سور القاهرة الغربي، مروا على باب الجسر أولاً، والآن غادروا من أمام باب سعادة أو باب السوق، وبدا الخليج في الانحراف شرقًا بعد انتهاء السور، وبعد القاهرة بمسافة قليلة بدأت المركب في الدخول على شاطئ صغير، لم تكن الشمس غابت بعد، وقف أحد المجدفين الذي لم ينطق بكلمة واحدة طول الرحلة وتحدث بلسان عربي «تفضل سيدي بالنزول! وسوف ننزل لك أمتعتك.

أخذ «يوسف» بيد «إيرينا»، وأنزلها، ونزل خلفها، وبدأ الرجال في فك الحصان والجمل، ومن ثم أنزلوها قال له الرجل:

- ستتابع السير نحو الشرق في خط مستقيم، وبعد ساعة سترى المسجد الكبير، هو في منتصف الفسطاط، حينها تكونان وصلتما.

شكره «يوسف» بأدب، وأركب «إيرينا» الجمل، وأعاد ربطه «الحصان كأول مرة، وجدًا في السير جاعلين الشمس ترحل خلفهم بلا وداع، وبعد وقت ليس ببعيد بدأت مأذنة عمرو بن العاص، تبدو واضحة بتفاصيلها، وباتت المساكن أكثر قربًا.

نظر يوسف إلى إيرينا نظرة المنتصر بابتسامة عريضة

- حمدًا لله على السلامة! سيدتي! لقد وصلنا إلى مقصدك، ستنامين الليلة في جوار أهلك.

لم تخف «إيرينا» مشاعرها؛ حيث إن نور وجهها قد بدا جليًا خصوصًا، وأن نور الشمس بدأ في الانقلاع، في شبه الظلام، فقط يمكنك أن تميز النور في الأشياء، وبدأت في الحديث:

- عليك بالسؤال عن الحاج «صالح الحداد» لكي نصل.

- حسنًا. لا تقلقي.

تابعوا المسير حتى أصبحوا داخل المدينة بالقرب من المسجد الذي بدأ الناس في الخروج منه عقب انتهاء الصلاة، ترجل من على حصانه، وسأل أحدهم، أين يمكنني أن أجد بيت الحاج «صالح الحداد»؟

نظر الرجل إليه قليلًا قبل أن يجيبه وكأنه يستغرب وجهه ، ثم قال له:

- عليك السير إلى الأمام وستجده في حانوته الآن بعد عشرة حوانيت، فشكره، وتابعا السير عدا للحوانيت التي كانت أغلبها مغلق.

* * *

الفصل الثاني

الفسطاط

وجد نفسه أمام رجل ضخم الجثة، قد خالط الشيب لحيته الكثيفة، وقد أطفت عباءته البنية عليه المزيد من الهيبة، وهو يحمل العارضة الضخمة التى يغلق بها باب حانوته، ألقى بتحية الإسلام عليه فرد الرجل دون أن يلتفت حتى انتهى وضع عارضته، ثم استدار وهو يكمل التحية، ونظر إليه مباشرة، فتحركت «إيرينا» إلى الأمام:

- مرحبا يا خالي!

- «إيرينا».

نطقه، وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة أنارت وجهه، وأظهرت كم الشوق الكامن في طيات قلبه لها!

- كيف حالك بنيتي؟ وكيف حال أبيكِ؟ لقد كبرتِ يا «إيرينا»! وتزوجتِ.

فالتفت إلى «يوسف» يبدو كزين الرجال، ولكن لمَ لم تدعونا للعرس يا خائنة صلة الرحم؟ هيا إلى البيت أولاً، ستفرح خالتك فاطمة جدًا، كانت تقول: إنها رأتك البارحة في المنام، يبدو أن حجابها قد انكشف.

فسلَّم على «يوسف» باليد، وربت على كتفه، ووضع يده على كتفه مع دفعة صغيرة للأمام، «هيا، تفضلوا، البيت ليس ببعيد، بعد بيتين من هنا».

تابعوا السير صامتين خطوات صغيرة حتى وجد «يوسف» نفسه أمام باب عالٍ مزخرف، وشبابيك من الخشب جميل المنظر.

تلك الصورة عن البيوت التى تمنى يومًا أن يسكنها.

بوابة من الخشب قرمزي اللون، والمزين بالنحاس، شبابيكه تزينها المشربيات الخشبية الجميلة، يبدو البيت كقصر صغير وسط البيوت التي حوله والتي تبدو أقل جمالًا.

طرق الحاج «صالح» الباب بكف يده، وهو ينادي يا فاطمة! افتحي، هناك ضيف قد أتى من رؤياك.

بعباءة حريرية منزلية، وقطعة قماش تغطي شعرها في إهمال، ووجه أبيض صاف تشوبه بعض الحمرة، فتحت الباب، وفور أن رأت «إيرينا» جرتها من ذراعها، واحتضنتها دون أن تنبث شفتاها بكلمة واحدة، ولكن عينيها أفصحت عن كم الفرحة والشوق الذي يختزنه القلب.

دعاهما الحج «صالح» للدخول مرة أخرى حتى يُنهي هذا الحضن الذي انتهى في ارتباك، مروا في الممر الضيق، وانعطفا إلى الباحة الواسعة التي ظهر في طرفها بئر مياه، وأربع غرف متناثرة، أبوابها في الداخل، وسلم يؤدى إلى الأعلى كما يبدو.

أجلسهم الحاج «صالح»، واستأذن بأن يخفف من ملابسه قليلًا ثم يعود.

كان «يوسف» فى حالة انبهار لم يمر بمثلها قبلاً، ولم تشفع رحلة الأهرام في تقليل انبهاره حتى منذ أيام كان يتمنى أن يدخل أحد تلك البيوت، والآن يتحدث إلى أحد ساكنيها.

كبَشَرِيَ من الممكن أن تحدث له سكتة دماغية الآن، نظرت له «إيرينا» في خجل:

- عذرًا، أشعر بأنني أقحمتك في الأمر أكثر مما يجب.

- دعي هذا الحديث الآن، لربما دخل علينا أحد، سنتحدث على انفراد.

أظنهم يقاتلونك لو علموا أننى لست بزوجك الآن.

- هذا وارد هنا للأسف.

- حسنًا. دعي هذا الآن، سنتحدث لاحقًا.

دخل الحاج «صالح» فى تلك الأثناء وهو يرتدي جلبابًا أبيض فضفاضًا.

صاح مرحبًا مبتهجًا، وهو يضع طبقًا كبيرًا من الفاكهة أمامهم.

- هذا حتى تعد فاطمة الغداء.

- أرجو أن لا نكون ضيفين ثقيلين عليكما، هي أيام حتى نتمكن من شراء بيت مناسب لنا.

- ماذا تقول بحق السماء؟ أنت زوج ابنتي، وهي في بيتها، أنت لست بضيف، أنتم هنا من أصحاب هذه الدار، وكما ترى أنا بلا أولاد، ثم إن «فاطمة» ستكون سعيدة بأن تجالس حبيبتها دائمًا بدلًا من وحدتها، فهي لا تسمح حتى بوجود خادمة فى الدار. هيا، احك

لي، كيف كانت رحلتكما للفسطاط؟ المسافة شاقة أليس كذلك؟

بدأ يوسف في السرد، ولكن مع تغير بعض الأحداث، فألغى قصة القتل، و أضاف بدلًا منها سرقة، وحكى عن الجيبتيين، وأنهم أهدوهما خاتمًا وقلادة، وأخفى السر العظيم والكتاب عنه بالتأكيد.

وقد أبدى الحاج تعجبه من سلوك الجيبتيين معهم؛ لعلمه أنهم يكرهون العرب والمسلمين، ولم يحاول «يوسف» تعديل الصورة له؛ لأنه سيكون مستفزًا لمشاعر الحاج، وسيكون غريب الأطوار حينها أمامه.

ظل الحديث ممتدًا يتخلله بعض النكات حتى الغداء،

وليمة كاملة من البط، والأرز، واللحم، أكل الجميع، ثم فتح له الحاج غرفة، كانت معدة للضيوف، وقال:

- هذا بيتكم الآن.

الغرفة لم تكن صغيرة، كانت تحوي سريرًا، وأريكة أسفل النافذة التي يتسلل منها الضوء، وما أشبه بحوض استحمام فور الدخول إلى الغرفة، سجدت «إيرينا» شاكرة ربها على الوصول، والسلامة، وحفظ السر.

في حين استأذنها «يوسف» أن يأخذ حمامًا، لم تفهمه كليًا في البداية لكنها فهمت بمجرد المحاولة، وقالت إنها ستخرج من الغرفة لكنه طلبها بالبقاء حتى لا ينكشف أمرهما، فليست هناك زوجة تخجل من زوجها، وطمأنها بأن هناك غطاء واقيًا، فلن تراه أو يراها وهو يستحم، أوصته ألا يسرف في الماء، فهي لا تعرف مقدار الماء

المخزن هنا أو متى سيأتى السقا؟

أنهى الاستحمام في عجل، ولبس ملابس جديدة، بالطبع كانت ملابس والد «إيرينا» التي أحضرتها له، شعر بأن عناء الرحلة قد بدأ يتبخر.

لقد أزال الماء بالفعل آثار العدوان.

استأذنته في الخروج من الغرفة حتى يتثنى لها الاغتسال،

لم يجد بدًا من الخروج؛ لأنها لن تقتنع أنه لن ينظر، ولن يقنعها أبدا تحذير بالافتضاح. تلك هي الأنثى حين تشعر بأن جسدها مهدد لا تقبل أي مساومات أو ضغوط.

خرج إلى باحة الدار، كان الغروب قد انتهى، وبدت النجوم واضحة وضوء القمر كان يملأ الباحة؛ حيث تلاقت عيناه مع المضاجع التي كان يتكئ عليها عند الغداء، فجلس عليها وهو يروم السماء بعيينه، ويقلب عينيه في هذا الحلم الجميل، فأطلق في رأسه الحديث، ماذا لو كان «مصطفى» معي الآن هنا؟ ندخن الشيشة تحت تلك السماء الصافية، كنت أحفظ ببعض من أسماء تلك النجوم، ماذا لو أن عود الشيخ إمام هنا؟

الأمر سيكون ساحرًا فوق سحره، ذكريات سعيدة جلبت بعضها بعضًا إلى رأسه الآن، الآن مصباح الحاج «صالح» قد قاطعه؛ حيث أتاه الضوء من أمامه، وبجواره ملامح الحاج «صالح» جلية:

- شعرت بك، وقلت لعلك لم تستطع النوم، فنزلت أؤنس وحدتك.

- لقد اغتسلت، وخرجت لاستنشاق بعض الهواء تحت تلك

النجوم، إذا أردت أنت أن تنام فلا تحمل نفسك طاقة أخرى لأجلي، أنا بخير.

- لا عليك، لا أستطيع النوم أنا أيضًا. أتاكل بعض الفاكهة؟

- لا. شكرًا.

- هذا ليس سؤالًا لتجيب بلا.

ذهب الحاج إلى غرفته في الصحن، وخرج بطبق مليء بالفاكهة، ووضعه أمامه، ثم ناول «يوسف» عنقود عنب في يديه.

بدأ «يوسف» بتذوق العنب، طعمه لذيذ، مختلف عما كان يعتقد أنه عنب في السابق، هذا هو ما يقال له عنب من الجنة.

- حدثني عنك يا «يوسف»! ماذا كنت تعمل؟

- مزارعًا. كنت أعمل مع الحاج «عنان» في أرضه أواخر أيامه.

- وما دفعك لترك الأرض والرحيل؟

- هذه رغبة «إيرينا»، كانت تريد الذهاب بعيدًا، لم تحتمل العيش هناك دون أبيها، كما كانت تبغي جوارك.

- وما رغبتك أنت؟ أكنت تريد البقاء؟

- وما قيمة رغبتي أمام رغبته! على الزوجين دائمًا البحث عن راحة بعضهما البعض، وإلا ستكون حياة أحدهم سجنًا من صنع الآخر، ثم إن الهجرة سنة النبي، وسنة الحياة من بعده.

- ونعم الرأي والله! تبدو عليك أمارات الحكمة.

- ألديك هنا في الفسطاط أو أبعد قليلًا قريب أو صاحب؟

- ليس لدي أحد هنا أو هناك، ليس لدي أحد على قيد الحياة، لكني سأبحث عن عمل هنا.

- في الزراعة؟

- بلى. أريد أن أغير مهنتي، وأفعل أشياء جديدة، وأتعلم.

- ما رأيك في الحدادة وصنع السلاح؟

- لم لا نجرب؟

- كنت أتحدث أنا وخالتك «فاطمة» قبل أن أتي إليك في هذا.

- أنا كما ترى بلا أولاد، وقد أرسل الله لي «إيرينا» الآن.

كنا نتحدث أنك لن تمانع لو اتخذتك مثل ابنًا لي، وأعلمك، وتسير معي جنبًا إلى جنب في درب الحياة الذي أوشكت على أن أنهيه.

- هذا شرف عظيم أن يكون لي أب مثلك سيدي! وستجدنني إن شاء الله خير ابن وخير متدرب.

- حسنًا. استرح الآن من عناء سفرك، وحين يروق لك العمل سأصطحبك إلى الحانوت.

- والآن ادخل إلى امرأتك، ونم بجوارها، وليفعل الله بنا الصالح! تصبح على خير من الله وبركاته.

- تصبح على خير.

قام، ودق الباب على «إيرينا»، فسمحت له بالدخول، وجلس على الأريكة، ثم قص لها ما حدث للتو بينه وبين خالها بالكامل.

فاعتدلت في جلستها أكثر، وأنزلت يدها من على فمها الصغير، وفورًا اتجه بصرها صوب نقطة ما غير موجودة على الأرض.

اختلج صوتها وهي تقول:

- يبدو أنني أفسدت أمر حياتك بالكامل.

- دعكِ من كل هذا، أريد أن أحدثك في أمر ما أهم الآن.

- ما هو؟ تفضل.

- أتذكرين حين حدثتك عن حديثي مع خالك الآن، حين ذكرت له عن سبب رحيلنا إليهم وعن واجبات الأزواج تجاه بعضهم بعضًا؟

- نعم. كان هذا منذ طرفة عين.

- حينها كنت أشعر بهدوء ما بداخلي، وراحة غريبة مفعمة ببهجة، لا أفهم مصدرها.

- لا أفهم ما تصبو إليه.

- أتقبلين الزواج مني؟

- ماذا؟ أنا أعلم أنك فعلت الكثير من أجلي ولكن لا أعلم إن كنت.

- اهدئي، لا أريد ردك الآن، خذي وقتك، وفكري، واستخيري ربك.

- حسنًا.

- فلننم الآن، نستحق بعض الراحة بعد كل ما اجتزناه في تلك الرحلة.

- تصبح على خير من الله!

- تصبحين على خير!

استلقت هي على السرير، وهو على الأريكة أسفل النافذة التي ينسل منها ضوء القمر قرب رأسه، وبعدها بدقائق نداها بصوت خافت «إيرينا، غفوت.

- لا لم أنم.

فأقام جذعه، وأصبح ضوء القمر يغطي وجهه، ويظهر لمعة عينيه في وضوح، كان يشبه صورة المسيح المحاطة بهالة ضوء في الكنائس. جميعنا يعرف من أين أتت قدسية «يوسف» هنا؟ هرمون الأوكسيتوسين بالطبع أو بمعنى آخر «الحب».

نظر إليها «أحبك، ثم ترك جسده للفراش، وغاص فجأة في نوم عميق. هرب من الرد أو ربما جهازه العصبي لم يكن ليتحمل أي شيء قد يأتي بعدها، فأغرقت في النوم فجأة كالأطفال التي تهرب من خوفها. وظلت «إيرينا» متيقظة لفترة حتى غلب النوم مشاعرها المتخبطة والتي لا تفهم منها شيئًا.

منذ أن شق الشعاع الأول لضوء السماء، وعقب صلاة الفجر في مسجد ابن العاص، هرع الجميع إلى أشغالهم، استيقظ «يوسف» على صوت الأرجل والحوافر التي تمر في الزقاق الجانبي لغرفته، ظل ساكنًا للحظة ساعته البيولوجية لا تستطيع تحديد كم الساعة، ولاساعة هنا، هل يخرج إلى الدار؟ ولكن ماذا لو كان الوقت غير مناسب؟ لم يرد إزعاج «إيرينا»، فأخيرًا قد نامت مطمئنة غير خائفة من مجهول يجري خلفها أشعة الشمس، قد ملأت الغرفة نورًا جعل كل تفاصيلها واضحة، راق له جو الغرفة، لا يوجد شيشة هنا، ولا سبيل لإحضارها، حتى كوب الشاي الصباحي لن يحصل عليه أيضًا،

جسده منهك يشعر ببعض الصداع، وآلام خفيفة في عضلاته، لم يعد يعرف كم مر من الوقت؟ وهو مستيقظ، لم يجد سبيلًا إلا إيقاظ «إيرينا»، تلك الجميلة النائمة كفتيات القصص الكرتونية، بدأ في منادتها بصوت هادي ومنخفض «إيرينا»! «إيرينا»! ولكنها لم ترد، فيزيد من قوة صوته تدريجيًا حتى انتفضت «إيرينا» خائفة، تجري من السرير صوب الحائط، فقام بسرعة، ولم يكن هناك سبيل لمنعها الارتطام إلا الاحتضان، أخذها بين ضلوعه، وظل يهمس في أذنيها «اهدي.. اهدي» لحظات وكانت واعية، ومن فورها ابتعدت بقوة عن حضنه، فاعتذر، وشرح لها ما حدث وأنه لم يقصد، ردت بأنه كان كابوسًا كانت تحلم بلحظة موت أبويها وأنها كانت تجري نحوهم، الدموع الرقيقة التي كانت تغطي عينيها اللامعتين، وتضيف إلى خديها المزيد من النضارة، كانت ساحرة رغم كل هذا الحزن في المشهد، مسحت دموعها مثل أي امرأة قوية، مرت بما يكفي حتى تصير صلبة، وعدلت من غطاء رأسها الذي كانت تنام به:

- أترغبين أن أخرج لتغيري ملابسك أو أن تكوني على راحتك أكثر؟

- لا أعلم ما أريد.

- حسنًا. سأخرج وأدعك لنفسك قليلًا.

تحرك حتى الباب، وقبض على مقبضه بيده، وانفتح الباب قليلاً، فسمع اسمه فأغلقه بسرعة لكن كان ينتظر أن ينادى عليه.

- أريدك معي قليلًا.

- أنا ملكك مولاتي!

- لا تتحدث هكذا، تجعلني أرتبك.

- آسف.

- لا تتأسف.

- ماذا أفعل؟

- كن طبيعيًا.

- ألم تشعري بشيء بعد حديثي أمس؟

- أجل.

- ما هو؟ أخبريني.

- لم أنم.

- وثم؟

- لا أريد التحدث بصدد هذا الآن.

- إذا ماذا تريدين؟

- متى تريد الرحيل؟ أعلم أنك لست منا، نحن نخل وجذوع جذورنا في الأرض، أنت وردة، اقتلعت من بستانها، ولن تدوم، ليس لديك شيء هنا لا عائلة، لامكان، لا عمل، حتى أني لم أرك تصلي في تلك الأيام، وكنت مبهورًا بالأوثان الخاصة بالجيبتيين مع أنك قلت لي إنك مسلم، لم تريد البقاء؟ أتحبني كما قلت ليلًا؟ وهربت كما الأطفال بالنوم، حتى إن كنت صادقًا كنت أحب والداي لكنهما رحلا، لن أنتظر أن يرحل أحد مجددًا، لا أدري إن كان ما بداخلي

حب كما كنت أتمناه، أم هو الأمان في كنفك، أم محض شعور تجاه سر غريب وغامض تمتلكه وحدك؟

«كانت تتحدث والدموع تنهمر من عينيها، وصوتها بدأ يتقطع من كثرة المحاولة في كتم البكاء، هذا القمر الجميل التائه يعلن عن غضبه، لقد لعن الكون في عبارات رقيقة مثله، هي أقوى مما يظن وأقوى مما كنت أنا أظن، كيف أخرجت مشاعرها بتلك القوة؟ كيف كانت صامدة كل هذا؟ من المؤلم أن تتغير حياتك في أيام، بل في لحظات لحظة في حضن أبيها، لحظة في حضن التراب، لحظة في حضن غريب تشعر معه بالأمان، وبعد هذا لحظة تنتظر الموت الأكيد، كنهاية أبدية محكمة لما يجري مهما طال الأمد، كان «يوسف» كل تلك اللحظات جامدًا، أيبكي، أم يواسيها، أم يلعن الحب الوليد، ويرحل، مسحت دموعها، وعادت من جديد ملامحها الجامدة التي اعتادت على رسمها. وقف يوسف أمامها منهك القوى وكأنما عاد من سفرٍ طويل.

لماذا تبكي؟ لن تموتي الآن، ولن أرحل، ابكي، قال لي «دبجن» أنني خالد ما دمت هنا، لن أموت، ولن أرحل، مات والدي مثلك ولكن حتى لم أحظَ بلحظة وداع، لم أرها في لحظات الفراق، خسرت كل شيء وأنا هنا الآن، أحاول أن أفوز بقلبك بعد كل تلك المسافة، وما حدث، أحبك، وسأظل هنا بجوارك دائمًا.

- كيف لن تموت؟ نحن موتى، نحن إلى الله راجعون.

- ليس هنا، لن أموت هنا، و لن أرحل من هنا.

- كيف لي أن أصدقك؟

- قال لي «دبجن» إن علامة الخلود أن لايكبرني شيء من شعر لحيتي وشعري إن لم يكبرا بعد في المدة التي تزوجتك فيها.

- «دبجن»، تقصد الجيبتى الوثني؟ ما زلت تصدق سحرهم!

- «دبجن» ليس وثنيًا، ولمَ قد يكذب علينا؟ الوقت هو الاختبار إن لم تطل لحيتي وشعر رأسي نتزوج.

- وإن كبرا.

- سيكون مصيري الموت.

- هل يمكنني عناقك؟

- ضما بعضهما البعض، امتزجت أرواحهما العاجزة عن حمل كل ما يحدث، سالت دموعها، هدأت بعدها الأنفاس، صمت رهيب خيَّم على كل شيء، كصمت الموت الأخير، الآن فهمت معنى أن يموت فيها عشقًا. ظل هذا الحضن لثوان، وربما ساعات أو سنوات. فالوقت نسبي، لا يقاس بمرور الساعات بل يقاس بمقدار شغفك بكل لحظة، فلحظة شغف تساوي مائة عام من لحظات عادية بلا هدف، أو حلم كبير، أو حتى حضن كهذا. ولأننا ما زلنا بمصر فتلك الرومانسية يجب ألا تدوم طويلاً، فهي تؤثر على التركيز ومعدل الذكاء.

صوت كحة خفيفة لخال إيرينا، تلك الكحة المفتعلة لتنبيه أحد ما أنك قادم. فعلًا قديمًا يشبه الاستئذان الذي لا مفر به، هو يستأذنك، أجل لكن لا رادع لقدومه، وطرق الخال «صالح» ثلاث طرقات على الباب، فانتهت فترة العناق، واتجه «يوسف» صوب الباب،

بينما «إيرينا» تلملم شتات دموعها من على وجهها.

- كيف حالك يا بني؟ آمل أن تكون نمت في راحة.

- الحمد لله! لقد أيقظت مبكرًا ولكن لم أعرف ماذا أفعل؟

- توقعت هذا، لذلك عدت مبكرًا من الحانوت لأجلك.

- يبدو أنني أربك يومك، آسف على هذا.

- بلى. وجودكم أعاد الحياة لذلك البيت، ألم تستيقظ «إيرينا» بعد؟

- بلي . «إيرينا»! «إيرينا»!

- أنا هنا يا خالي! تفضل.

دخل «يوسف» وخلفه الحج «صالح» إلى الغرفة..

- كيف حالك اليوم بنيتي؟

- بخير يا خالي! الحمد لله!

- قالت خالتكِ بأنك لم تخرجي منذ أمس، تريدك اذهبي إليها الآن، ودعيني أنا وزوجك، لدينا كلام رجال لنتحدث فيه.

- حاضر يا خالي!

اتجهت «إيرينا» إلى الخارج صاعدة الدرج إلى خالتها بالأعلى.

عرض الحاج «صالح» على «يوسف» الذهاب للتمشية في الخارج، فالجو جميل، فرحب «يوسف» بشدة.

خرجا من المنزل، وسارا في الطرقات الضيقة دون أن يتحدث أحد منهم بأي كلمة حتى وجد نفسه في السوق، وعلى يساره مسجد،

فأشار الحج «صالح» إلى المسجد محدثًا يوسف أن هذا مسجد «عمرو بن العاص»، كان أصغر من المسجد الذي زاره «يوسف» في عصره بكثير ويفصل بينه و بين الزروع السوق..

فسأل يوسف: النيل قريب؟ فأجابه «صالح» بنعم، وبدآ في الانعطاف يمينًا متجاوزين السوق، وعابرين مساحة المزارع حتى وصلا إلى شاطئ النيل، وكان يبدو أكبر مما يراه في عصره، ويقابلهم جزيرة مزروعة بالكامل وعليها مساكن قليلة، فقال للحاج:

- أهذه الروضة؟

- أجل. أتعرفها؟

- سمعت عنها، يقولون: روضة من رياض الأرض.

- زرتها كثيرًا، هناك مراكب تقلك إلى هناك، بيوتها القليلة بسيطة، وأرضها مزروعة بكل الخيرات، وبها ورد وأزهار كثيرة، ونسيمها عليل.

- زدت شوقي لأراها.

- إذًا هيا بنا حالًا.

تابعا السير جاعلين من النيل يمينهم حتى وصلوا إلى بقايا حصن بابليون وتبدو من خلال بقاياه علامات الكنائس القديمة، حتى مرسى المعدية الصغيرة، فركبا، وانطلقا بعرض النيل لدقائق حتى وصلا إلى الروضة، وقد تغير الهواء تقريبًا من حولهم، صار له رائحة مميزة جميلة، وقد أصبح أخف على الرئتين، وقف «يوسف» وقد أغمض عينيه، وبدأ في ملء الرئتين بهذا الهواء المنعش حتى

ظن الحج صالح أن به شيئًا، فسأله:

- ماذا بك يا بني؟

فانتبه «يوسف» بأنه ليس وحيدًا بل بجواره الحاج «صالح».

- لا شيء. فقط سرقني هذا النسيم ليس إلا.

- لست كوالدك أو كصديق عتيق على الأقل؟

- رحم الله والدي! وأعطاك طولة العمر وراحة البال! منذ لقائنا الأول وانشرح صدري لبشاشة وجهك التي تشعرني بالاطمئنان.

- إن كان الأمر هكذا دعني أحدثك بشيء ما في نفسي.

- وما بنفسك يا حاج «صالح»؟ هل أسأت إليك دون قصد؟

- لم أرَ منك إلا الخير يا بني! لكن دعني أحدثك عما بنفسي أولًا.

- تفضل يا شيخي!

- لم تدم معنا غير ليلة وضحاها، ولم نتحدث إلا مرة ولكني لست بصغير أو قليل خبرة بالرجال، لقد عشت ما يكفي لأحفظ تقسيمات وجه البشر وردود الأفعال، التاجر يجب أن يقرأ ما في أعين الناس، يرى تاريخهم، وخططتهم، وتفكيرهم، وأحلامهم البعيدة بنظره، عليه أن يعي كل هذا؛ ليستخدمه في صفقاته. الأمر يتم في كلمة، في حركة، في إيماء. وأنا تاجر، لذلك علمت كل ما بك لحظة رأيتك.

دبت رجفة في قلب «يوسف» وجسده، هل انكشف سره الكبير؟ وماذا عساه أن يقول، يحاول تجميع شتات أفكاره وكلماته، وحمدًا لله أنه لم يُبِن، فقد تابع الحاج «صالح».

- لماذا أنت شارد دائمًا ويبدو أن عينك لم تنم جيدا؟ أشعر بأنك غير مرتاح، ولم تألف المكان بعد، حدثني عن أمرك، لو بك شيء أغيره لك بمشيئة الله، لو أن السكن لا يريحك قل لي، وسأرى ما يمكنني فعله في هذا غدًا. لو أن ابنة أخي فعلت ما يغضبك عليها، سلني، أوجهها لصالحك، تحدث يا فتى! تكلم، واعتبر ما تحدثت به نسيًا منسيًا.

- والله يا والدي! لا هذا ولا ذاك، كل ما بي أن حياتي تغيرت في ليلة وضحاها ولم آلف هذا الوضع الجديد بعد أشعر بأني لا حياة لي، لا عمل، لا شيء عدت كيوم ولادتي في الحياة غير أني بثيابي.

- وهذا هو ما كان في نفسي.

- ما تقصد؟

- إن أردت العمل بالزراعة كماكنت فهذا لك، و أما إن كان لي مكان بقلبك قبلت العمل معي في مالك ومال زوجتك.

- لم أبارز يومًا بسيف، ولم أجرب حمله، كيف لي صناعته؟

- يؤتي العلم من يشاء يا بني! لي أن أعلمك، ولك أن تنمو بما تعلمتفتصير كما يكتب الله لك، فكله خير.

- جعل الله لي و لك الخير، أوافقك على مرافقتك كابن لأبيه.

- ليشرح الله قلبك بما قلت! فشرح قلبي، هلا نعود للغداء؟

- هيا بنا.

- هل لي أن أسألك عن هذا الخاتم الغريب الذي ترتديه؟ لفت نظري منذ الوهلة الأولى.

- أتذكر حين حدثتك عن رحلتنا؟

- أجل.

- مررنا بقوم من أبناء هذا البلد وأصحابها، مررنا بالجيبتيين.

- تقصد قرية الجيبت أسفل الهرم؟

- أجل. أعطوني هذا كهدية.

- ولمَ قبلت؟ هؤلاء قوم سحرة مكارون، ربما به شيء يؤذيك.

- لا تقلق هكذا، اسم الله على الشيء الخبث يفسده، قد سميت الله عليه.

- نعم ما فعلت يا بني!

مضيا في طريقهم إلى المنزل، وجدوا الغداء قد شرف على أن يقدم لهم.

جلسوا يتناولون لحم الدجاج المشوي مع الأرز الأبيض، وحبوب البازلاء، وفي أثناء الأكل كان الحاج «صالح» يحكي ما حدث، وقد تهللت ملامح وجه زوجته، وكذلك «إيرينا»؛ لما سمعوا من الكلام عن العمل.

ومر اليوم بين الطعام، والسمر، وجولة أخرى مع الحاج «صالح» لمشاهدة سباق الجمال، كان يومًا خاطفًا وسريعًا، وعندما عاد يتأهب للنوم، تجاذب أطراف الحديث مع «إيرينا» حول اليوم وأحداثه، عبرت له عن حماسها لقراره، ناما في أماكنهم وقد اعتاد هو على تلك الأريكة وضوء القمر الساطع الذي يبدو الليلة أقرب من الأرض، وقد أوشك على الاكتمال.

في الفجر استيقظ على طرق الباب، و صوت الحاج «صالح» مناديًا:

- صلاة الفجر يا نيام.

قام «يوسف» متكاسلًا إلى الباب وأخبر من خلفه أنه قادم.وارتدى الجلباب والعباءة على البنطال الذي كان ينام به، فخرج إلى الباحة، وجد الحاج «صالح» وقد أنهى وضوءه، وساعده على الوضوء حتى انطلقا إلى المسجد، ذلك المسجد الصغير نسبا الذي كان يحكم منه عمرو بن العاص مصر في البداية، صلاة الفجر خلف دكة المبلغ بصفين، ثم انطلقا إلى الحانوت يفتحانه، أخبره الحاج بألا يفعل شيئًا لذلك اليوم، فقط ارتد الملاءة والصدرية حتى لا تتلوث ثيابك، وانظر ماذا أصنع؟ واستمع لى جيدًا، بدآ في فتح الحانوت بإزالة العارضة مرورًا بفتح الأبواب حتى أخرج المنتجات الجاهزة للتسليم، وكان «يوسف» يساعده في الحمل وفقط.

انتهى اليوم بعد أن تعرف «يوسف» على أسماء العدد والآلات الموجودة، ونظر إلى تكنيك الطرق، وإحماء النار، وانتهى اليوم الذي تخلله العمل والصلاة. أغلق الحانوت وقت صلاة المغرب، ثم أخذا درب العودة إلى البيت، وقد كان عساكر الدرك تستعد للانتشار في المدينة؛ لحفظ الأمن ليلا، وعندما عاد دخل إلى غرفته؛ حيث كانت «إيرينا» في انتظاره، فأخذ في الاستحمام مطولًا بمسحوق عطري أعطته إياه «إيرينا»؛ ليخلطه بالماء حتى يغلب على رائحة نار الكير التي علقت بجسده من الحانوت، ولكن أخذ وقتًا مطولًا تحت الماء محاولًا إنهاء حالة الإجهاد الذهني والجسدي من الحمل

طوال اليوم، وعندما خرج وجد الفانوس بالغرفة قد زاد وهجه، وصاحبه فانوس آخر، و«إيرينا» على السرير في ملابس شبه عارية، ويفوح عطرها في محيطها القريب، واقتربت منه، وقد أزالت بقطعة من قماش في يديها بقايا الماء العالق على جبهته، وشعر لحيته الخفيف، وهي تقول بصوتها الرقيق «لقد تعبت اليوم زوجي العزيز! أرجو أن تكون سعيدًا في هذا».

وعندما سمع كلمة «زوجي» وسط كلامها اتسعت حدقتا عينيه، وسكن جسده، وخرت قواه، فلم يرد على حديثها، فأقبلت على جبينه، وطبعت قبلة رقيقة، فحملها، ودار بها حول نفسه هاتفًا: «أحبك. أحبك «إيرينا»! فأطلقت ضحكة، وقالت «ربما يسمعك خالي «فأنزلها، والتهم شفتاها في نهم، ونظر في عينها «وما العيب في بوح العاشق بعشقه؟ فليسمعنا خالك، وليسمعنا الإمام، وليسمعنا السلطان، أنتِ اليوم بين يدي، أليس لي الآن ملك مصر وكل تلك الأنهار تجري من تحتي، وسار بها إلى السرير، ومرت الليلة كليلة العرس الحقيقي في تناغم على السرير الذي كان يهتز من أسفلهما، وتتصاعد مع هزاته الآهات وكلمات العشق التي ينطقها لسانان قد سكرا من نشوتهما، لم يعكر صفوتهم سوى دم بكرتها الذي لطخ السرير وبقايا ملابسهما، ظلا هكذا مدة من الوقت، ولم يدريا في أي ساعة قد غلب النوم النشوة، احتاج إلى الاستحمام صباحًا مما أخره عن صلاة الفجر، ولكن بدى النشاط واضحًا عليه في العمل الذي كان يصارع الزمن من أجل التعلم أكثر فأكثر، مرت الليالي والأيام ليلة بعد ليلة وهو يتعلم أكثر، ويعرف أكثر، وتعرفه الناس

أكثر، ويغوص في حضن «إيرينا» وقلبها أكثر، وحاول مرارًا اكتشاف العالم من حوله، ولكنه كالطفل الذي لا يعلم ما هي ضالته التي يبحث عنها؟ حضر عشرات جلسات الشعر والمغنى مع الحاج «صالح» أو حتى بدونه، سباقات الخيل تعرف على الحانة ولم يدخلها، حضر موسم جمع الضرائب الشهري، وكان يمقط الحرس كما كان يمقط رجال الشرطة، يبدو أن الأمر لم يتغير كثيرًا عبر تلك العصور، دائمًا السرقة تأتي من الأعلى من رأس الأمر وحامي الحمى، دائمًا يلعب دور السارق الأنيق في ثيابه الحريرية وأسفل تاجه المزعوم، يوهم الجميع بما يريد أن يوهم، يصدق العامة ورعه، وتقواه، وحسن خلقه، ورجاحة عقله، وعدل حكمه ولكن الحقيقة هي الحقيقة، دائمًا هناك لص يختبئ خلف كل هذا، وينتظر الوقت المناسب والفرصة التي تعطي له حجة قوية للسرقة.

واكتشف مع كل تلك التفاصيل البسيطة لحياته الهادئة، هواية سرية كانت بداخله، ولم يشعر بها، ربما استفزها العمل الجديد، لم يكن يعلم لما يفضل أفلام الساموراي، ومشاهد المعارك القديمة عن الأكشن الحديث، والمدافع، والطلقات، وقد بدأ يهدر الورق الثمين والحبر الغالي في محاولات؛ لرسم نماذج الأسلحة قديمة، وسيوف مستوحاة من كل تلك المشاهد التي نشاهدها والألعاب التي نلعبها، كان هذا يأخذ من وقت «إيرينا» لكنها كامرأة ناضجة تعلمت أن الوضع السابق في حياة زوجها لن يستمر طويلاً، لن يظل أمره بين العمل صباحًا والجنس ليلاً، فكانت سعيدة بأن يتركها في وقت تلك العادة، ولم يفعل كرجال زمانها، فينتهي به الأمر في

الحانة أو بين أحضان القحاب في أطراف المدينة. شاركته رسوماته وحديثه عن تفكيره في جلب «مصطفى». ليس سهلاً أن يعاشر الرجل صديقًا طول عمره مشاركًا إياه كل حياته، ثم يرحل دون أن يترك أي ندوب ولكنها تقاربت معه لدرجة أنها تخشى أن يرحل؛ لكي يقنع «مصطفى» بالرحيل فيقنعه الآخر بالبقاء، استنزف الأمر أيامًا من المحادثات الهادئة والعصبية، ربما اكتشف هو خلالها الجانب المرح لها، تلك المرأة التي تقارب جيل السبعينيات في التحرر والفكر، تلك المتمردة التي رغم كل المعوقات تجاهد في تعلم العلوم وهرطقات الفلاسفة.

كان يساعدها في جلب الكتب من التجار وسارقي الكتب من المكتبات، كانا يتعلمان معًا، ويعمل بجد في الحانوت، تعلم الآن صنع أول سيف منفردًا دون مساعدة أو توجيه من الحاج «صالح»، وحفر عليه اسمها، ولأول مرة شعر أن الأمور هنا تمضي في سرعة.

الأيام تمر ويتبعها الأشهر، الحاج «صالح» قد حول باحة المنزل لساحة مبارزة، علمه كل ما يحتاج إليه عن السيف، كيفية المراوغة، والصد، ومُزقت خلال تلك العملية عشرات الدمى من صنع «إيرينا» التي طالما كانت تتابع التدريب بشغف، الحاج «صالح» لم يكن خبيرًا عسكريًا أو حتى مبارزا ماهرًا ولكنه علمه ما يمكنه الاعتماد عليه إذا حدث مكروه.

بعد أشهر أخرى قد جمع المال خلالها من العمل، والبيع، والشراء، والآن أخبر الحاج «صالح» برغبته في الاستقرار في منزل مستقل، قد وجه باعتراض في بادئ الأمر، ولكن لا شيء، قد يمنع

رجلاً من شيء يصبو إليه، بحثوا عن منزل، ووجدوا واحدًا في أطراف الفسطاط.

بدا كنموذج مصغر عن بيت الحاج «صالح»، انتقلوا إليه ولكن الأمر لم يدم طويلاً..

فبعد أسابيع بدت أعراض الحمل واضحة على «إيرينا»، قد برزت بطنها من جسدها النحيل، فرغب في عودتها من أجل أن تكون بجوار زوجة خالها للاعتناء بها أكثر، فنصف يومه في العمل، ولا يرغب في تركها وحيدة بهذا الوقت.

وفي ليلة قد تربع البدر في وسط السماء، وسط هالة من النجوم اللامعة التي تضفي قداسة حول ذلك القمر الذي يبدو الليلة كملكا وحيد للسماء.

قد أعدت «إيرينا» اللحم المشوي كأول مرة، أكله فيها معها، بينما هو منهمك في رسوماته الغريبة، دخلت عليه؛ لتخبره أن الطعام جاهز، وفور دخولها كان يهب للوقوف، فجرى نحوها، واحتضنها، ودار بها حول نفسه هاتفًا، أحبك أحبك أحبك بينما هي لا تزال متفاجئة مما يحدث، أنزلها، وهرع إلى الأوراق يريها رسمًا لسيف رفيع، في آخره سلسلة تحمل كرة غريبة تبدو مثل الشمس التي ترسم مدببة الأطراف، كان يشرح بشغف وكأنه قد وجد ضالته في صحراء مصر الكبرى، هي لا تفهم لكنها تقدر تلك اللمعة في عينه ضمته في حضنها دون أن تشكل بطنها المنتفخة حاجزًا، التهمت شفتاه وهي تخبره أنها تحبه، أنها فخورة بما يفعل، لا لأنها تفهمه، بل لأنها تحبه، تحبه وحسب، مرت الليلة سريعة جدًا، أنهيا يومهما

في القبل والنوم في أحضان بعضهما بعد تناول اللحم.

استيقظ قبل الفجر، ونظر لجذعه في المرآة، عضلات يده كانت مكانها ولكن عضلات بطنه السداسية قد شارفت على الاختفاء، فقرر في قرارة نفسه أن يعود للتدريب، سيبني مكانًا للتدريب ولكن أين هنا؟ لا يريد أن يزعجهم أكثر، البيت سيكون مناسبًا، ولكن «إيرينا» أيتركها هنا؟ هو في حيرة من أمره، مرت الساعات و إيرينا نائمة و هو يمارس بعض التمرينات في الغرفة محاولًا ألا يصدر أي أصوات حتى لا يزعج هذا الملاك النائم، وبعد صلاة الفجر وفي الحانوت اطلع الحاج «صالح» على رسمته الأخيرة، ورغم الشغف الكامن في حديثه إلا أن الحاج أخبره بأن ما يصبو إليه فيه عدة عوائق أهمها صعوبة الصنع، حتى إن شكل السيف غير مناسب، فكان رد «يوسف» أن السيف غرضه القتل، لا تكسير العظام والسيوف.. ولكن حب الحاج له جعله يقرر أن يتركه يحاول بعد نهاية عمله المعتاد، قال للحاج إنه يود إلقاء نظرة على بيته قبل الذهاب معه، ورحل وحيدًا إلى بيته.

كان الغبار يغطي كل شيء ولكنه غير مهتم إلا بالباحة، أمسك بالأوراق، وبدأ ينقل الباحة الداخلية على الورق، وأقفل داره، وذهب إلى منزل الحاج «صالح» في الليل، أخبر «إيرينا» بما ينوي أن يفعل، لم تمانع رغم خوفها من شيء لا تعلم مصدره بداخلها يحدثها عن الاعتراض ولكن جسدها الضعيف بالحمل الثقيل داخلها لم يستجب، فقط سألت إن كان سيخبر خالها فأجاب بأنه ليس لديه رغبة في إخبار أحد، سيرحل صباحًا إلى «دبجن» يطلب مساعدته في التعلم، وسيقيم أسبوعًا عنده، عيناها أفصحت عما بداخلها من

خوف حتى يديها التي عبثت بلحيته في توتر، أخبرته أنها خائفة، تريد أن تقول لا. لا تذهب أرجوك.

لكنها الآن تعرف «يوسف» أكثر من الجميع ما دام حكى فقد انتوى، وما دام انتوى فلن يثنيه عن نيته شيء قرأ هو ما بعينيها وما خطته بيديها على لحيته من توتر، فحدثها ألا تخف، لن يبرح البيت الجديد، سيكون هناك دومًا، تذكرت كلامه مع «دبجن» عن النبوءة، عن المهمة التي أرسله الإله من أجلها، فزاد الرعب بداخلها، هذا ليس «يوسف»، ليس «يوسف» الذي أتى من اللاشيء فأصبح كل شيء، تراه يتبدد أمام عينيها بشرته قد مالت للأسمر قليلاً، لم ينمُ شعر لحيته بعد، ولن ينمو أكثر من ذلك ولكن وجهه تغير، عيناه تغيرت، لا شيء سيئ أصابه، وهذا ما يقلق أكثر، يتفهم الناس تغيرك بعد المصائب الكبرى، ويتفهمون ندوب روحك أحيانًا بعد كل حادثة ولكن أن تتغير فجأة دون حادثة ما تذكر، يرونه أمرًا مريبًا ومثيرًا للخوف أحيانًا، وعدها بأن يكون هنا، هنا دومًا الليلة سيرحل لأسبوع.

الأمر أشبه بالخروج من رحمها إلى الحياة، تخشى عليه، كما تخشى الأم على رضيعها من يوم الفطام، هو صعب ولكن آتٍ لا محالة، لخصت كل ما تفكر فيه في قبلة، اعتصرت فيها شفتيه، وسحبت جزءًا من روحه داخلها، وبادلها بنفس اللغة رسائل الاطمئنان، حتى استسلما لنوم عميق، عند الفجر بدأ اليوم كالمعتاد، إلا أن العمل بالحانوت كان خفيفًا بل إن حركة السوق كلها كانت خفيفة، الأمر يشبه الكساد الكبير نوعًا ما، استغل «يوسف» تلك الفرصة السانحة أمامه، وفاتحه في إجازته التي يريد، قال بأنه يريد الاعتكاف

والمكوث مع نفسه قليلاً، بدا الحاج «صالح» متفاجئًا مما سمع، وغير جاهز للرد محاولًا إثناء «يوسف» بطريقة غير مباشرة إلا أنه لم يفلح فيما أراد، فكان لـ«يوسف» ما انتوى.

تحرك فور إغلاق الحانوت إلى البيت الجديد، وقد أعد غرفته وغرفة لـ«دبجن»، ورحل عند الفجر، شق بجواده الفسطاط حتى فم الخليج، فأخذ مركبًا للجانب الآخر، وأكمل حتى سفح الأهرام، وعلى الباب خاطب الحرس بأنه يريد «دبجن» لكنهم ميزوه من ملابسه ولهجته، علموا على الفور أنه عربي فقاموا بتوقيفه، ووجهوه نحو الكوخ الذى نزل به مسبقًا، وبعد لحظات أتى الوزير الذي كان يبدو غاضبًا ولكن سرعان ما تهلل وجهه عند رؤيته فسلما على بعضهما البعض في حضن قصير وتربيت على الأكتاف، فخاطبه «كآي»:

- أتأسف لهذه الطريقة في المقابلة ولكن يبدو أن الحرس لم يعرفوك.

- لا يهمك. لم يحدث شيء، لقد قاما بعملهما فحسب.

- لكن قل لى هل آن الأوان؟

- أوان ماذا؟

- هل آن أوان عودتك يا ملك كيمت؟

- لا أعلم عما تتحدث؟

- إذًا حدثني لما أتيت؟

- أود لقاء «دبجن» المبجل.

- لك ما طلبت سيدي! أتود الانتظار هنا أم تأتي في صحبتي؟

هو في منزله في أعلى القرية.

- لا. لا سأنتظر حتى يأتي، لا أريد أن أزعجه إن كان غير مستعد.

- حسنًا. كما ترى سيدي! لحظات وأعود إليك.

مرت لحظات الانتظار طويلة فيما كان يخبر «دبجن» بالزائر، وعاد إليه مجددًا اصطحبه حتى البهو في منزل «دبجن»، وحين دخل رحب به «دبجن» بشدة محدثًا إياه بعد الترحيب:

- هل آن الموعد؟

- لا أعلم عن أي موعد تتحدثون؟ ولكن أريدك في أمر خاص.

- لك ما تطلب.

- أريدك أن تعلمني.

- أعلمك ماذا؟ (مقاطعًا)

- كل ما تعرف عن هذا، فأشار «يوسف» إليه بالأوراق، عم الصمت فجأة الذي لم يدم سوى لحظة، فشرع «يوسف» يشرح السلاح الجديد الذي ابتكره، وآراه مخطوطاته عن البيت وعن ماذا يود أن يفعل؟

فقال له «دبجن»:

- لك ما طلبت يا ملك كيمت! اعلم أن تلك البداية حتى وإن كنت لا تعلم أنت.

- متى نبدأ؟

- في أي وقت تريد.

- الآن؟

- سنرحل عند مغيب الشمس ما دمت تريد.

بعد الغداء ترك «دبجن» «يوسف» عند النار المقدسة للحظات، أعد فيها مع الوزير أمر القرية في غيابه..

وعاد إليه في أزياء عربية، مخبره إنه آن وقت الرحيل، فركبا جوادين، وانطلقا صوب المركب، ثم إلى الفسطاط صوب البيت الجديد.

وما إن دخلا بدأ «يوسف» في تعريفه على غرفته، ثم أعادوا النظر في المخطوطات في باحة المنزل.

وبدأ في وضع قائمة بما يريدون للبدء في العمل، وكان الليل قد جن عليهما فناما بغير طعام.

في الصباح تحرك «يوسف» إلى السوق؛ لشراء الأخشاب والمستلزمات، و«دبجن» إلى القرية؛ لجلب خادم آمين يعمل على رعايتهما طوال فترة التدريب.

وعند العودة بدآ في العمل مباشرةً ونصبا الأخشاب طبقًا للرسم، فكان لهم ما أرادوا من مكان للتدريب.

ساحة قتال مجهزة كاملة من صنع أيديهم، وضعوا فيها الرماح والسيوف التي أحضرها «دبجن»، ووضعوا الرمال التي لا يعلم في ماذا يستخدمها «يوسف»؟

ولكنه أخبره بضرورة إحضارها، وفيما انتهوا انتهى الخادم من إعداد الطعام،صنع لهم الكوشير بوصية من «دبجن».

الذي علل بأنها مقدسة، علمهم الإله صنعها منذ البداية: لما

يحمله هذا الطعام من قوة وطاقة، وبعد الطعام قد دب التعب في أوصالهم، عضلاتهم شعرت بالراحة، وأبدت اعتراضًا على أن تعمل من جديد، فخلد الجميع إلى النوم.

وعند أول شعاع رقيق لا ينير الأرض، كما يجب، كان «دبجن» يوقظ «يوسف»، وخرجا جريًا فى الصحراء صعودًا للمقطم ونزولا من هناك، «يوسف» كان يلتقط الأنفاس بصعوبة بينما «دبجن» يبدو وكأنه معتاد.

بعد الطعام قد بدأ «دبجن» بالحديث عن القتال والتدريب، كان الأمر أشبه بالمحاضرة النظرية الأولى. اتفقا بعدها أن يناما؛ للراحة على أن يبدأ التدريب عند الفجر..

فقام «دبجن» للنوم بينما «يوسف» كان يكدس الرمال فيما يشبه الأواني التي صنعت من جلود الحيوانات، يكدسها ويملأها؛ كي يستخدمها كأوزان للتدريب، تلك الطريقة القديمة تصلح دائمًا، إن لم تستخدم ما لديك فلن تحيا، صنع «يوسف» معدات للتدريب تشبه إلى حد ما معدات المركز الرياضي وإن لم تكن تشبهها فهي في أقل تقدير تؤدي الغرض نفسه.

بدآ في التدريبات البدنية الشاقة، فقد خرجا منذ الصباح في رمال المقطم، يهرولون تارة ويجرون تارة، تلفح جلودهم الشمس ويغطي العرق ملامحهما.

ما الهدف؟ لا يدري، لا يعلم، لمَ يفعل هذا بنفسه؟ لا يدري ما الذي أحضره إلى هنا؟ وكيف دب الحب في قلبه؟ وكيف استحوذ

الحب على عقله؟ وكيف وجد نفسه يسابق رمال الصحراء في كد وتعب للتدريب؟

التدريب لماذا لا يعلم ولا يهم؟

أصبح الآن جزءًا من النسيج، يسير مع خيوطه، ولا يعلم إلى أين؟ ليس لكل شيء هدف، قد تكون هلاوس فكرية أو حماسة منجرفة جعلته يعلق هنا، لا يهم، الآن قد بدأ يتذكر «إيرينا» وسط كل هذا الجهد.

كان يبتسم وهو يحمل الأحجار الكبيرة ويلقيها، كان يبتسم لطفله القادم، أهو «أحمد»، أم «ياسمين»، أم أي اسم؟ المهم أنه ابنه، ابن ذلك الحب الذي ولد في دربًا من الخيال.

أنهوا اليوم قرب العصر، ساروا متخبطين كالسكارى إلى البيت، بعض دفقات الماء البارد قد أعادت لهما وعيهما، ولكن لم تعد قواهم التي خرت من طول الوقت.

الطعام لا مذاق له، الجائع دائمًا لا يعرف طعم الطعام، الجائع ليس لديه خيار آخر، سيأكل ولن يمنعه عن ذلك شيء، لذلك يعطل عقله حاسة التذوقي، حتى لا تعيقة عن الهدف الحقيقي وهو الطعام، الغذاء، هذا الوقود الذي يحتاج للحياة.

يومًا مر بعد يوم، لا ينام إلا بعد أن يختال «إيرينا» في حضنه، ويتشابك معها الضلوع، ويغفو، مزقوا الدمى، وقطعوا الألواح، تعلم القفز، والدوارن، والمبارزة في أيام معدودة.

الأسبوع أصبح شهرًا، نمت عضلاته مجددًا أو كذلك هو شعر،

الآن هو يشبه ألعاب الفيديو أو كذلك يختال نفسه، لم يبقَ سوى صنع السلاح، سلاح الفارس الفريد في الحكايات الخيالية.

سلاح الفارس الذي يستمد منه قوته، ويعتمد عليه في الإبهار بدونه، لا بطل سيكون مميزًا وفريدًا.

بعد شهر من التدريب، وفي آخر ليلة كانا جالسين في باحة الدار، حينها أسهب «دبجن» نظره إلى السماء:

- هل انتهينا الآن؟

- لا أفهم قصدك.

- متى ستعود؟ لقد أديت ما خلقت له، أديت ما علمني أجدادي وانتظرتك، واعنتاك بعد ظهورك، هل يكون الرب بي رحيمًا؟ وهل يكون لنا ناصرًا الآن؟ لا بد أن يكون، عشنا الهوان، ونحن نمني أنفسنا باليوم هذا، بالمخلص ملك كيمت، وسيد أرض جيبتو العظيم.

- أنت لا تفهم جيدًا يا «دبجن»! دعنا نتحدث بصراحة، أنا لست ما تدعي، أنا إنسان ضعيف، أتيت من زمان ضعيف، وجودي محض صدفة، والداي كانا مسلمين، لذلك ربيت كمسلم، لدينا اعتقاد بمهدي منتظر، وزعيم مخلص أيضًا. لكني لست على إيمان كامل بأنه قادم.

- لك الحق أن لا تكون على إيمان بوجود مخلص، فأنت هو.

- أنا لست هو، أنا «يوسف».

- قالوا إنك لن تكون على علم ولا أحد، الجميع سيعلم في الميعاد، هكذا أخبرني الكهنة في معبد آمون قبل هدمه، وهكذا

تعلمت من والداي، وهكذا تعلم أجدادي في قدس الأقداس في طيبة.

- سأفعل كل ما يمكن لك وللناس إن أوتيت الفرصة، ليس لأني الموعود بل لأنني «يوسف» صديقك.

- غدًا نهدم ما بنيناه هنا، ونرحل.

- أجل. غدًا سنرحل، وسأعود لك حين أريدك.

- بلى. ستعود حين يريدك الخالق العظيم.

- فلننم الآن.

ذهب «دبجن» في نوم عميق، بينما ظلت الأفكار تؤرق «يوسف»، عاصفة تجوب عقله من أفكار، غير قادر على جماحها جميعًا أو حتى التركيز على واحدة.

في الفجر كان «دبجن» يفكك الأخشاب، وخادمه يحزم الأمتعة، حين استيقظ «يوسف» تجاذبوا أطراف الحديث وكلمات الوداع.

وانطلق «دبجن» وخادمه، بينما «يوسف» اتجه صوب بيت الحاج صالح، طرق الباب ثلاثة، فأتى صوت زوجة خال «إيرينا»، وفتحت فتهلل وجهها.

- أين كنت طول الشهر؟

- احتجت إلى الوحدة.

- ادخل يا بني! عمك بالحانوت و«إيرينا» لا تزال نائمة.

دخل على «إيرينا»، وجدها نائمة، كان يحمل شوقًا لا يفهمه

تجاهها، شوقًا كطفل، عاد من المدرسة في أول يوم، ويبحث عن أمه بين الصفوف.

خفف ملابسه، واستلقى بجوارها، بينما هي لم تشعر به كما هي عادة نومها الخفيف، وضع قبلة على جبينها، فتلمست شفتاه الحرارة في جسدها، فحاول إيقاظها ولكنها لا تستجيب، تجمد جسده المنهك، واتسعت حدقتا عينيه. لا يعلم ما يفعل؟ هرع إلى عباءته، فارتداها على البنطال عاري الجذع، ولفها بكلتا يديه، وخرج من الغرفة مناديًا على زوجة الحاج «صالح»!

يأبى مفارقة باب الغرفة ولكن صوته وصل إليها.

فنزلت مسرعة من غرفتها، فأخبرها بما وجد.

فهرعت إليها تتحس جبينها.

وأعدت لها الكمادات بالمياه الباردة.

وساعدها في جعل جسدها مبللًا وخصوصًا منطقة البطن.

الخوف كان يتملك قلبه، ويعتصره من الداخل.

يعلم أنه لا علاج للحمى هنا، قرأ في التاريخ عن كل من مات بها حين يذكر اسمها، يخشى فراقًا جديدًا، يخشى أن يضيع بعد أن وجد الطريق أخيرًا.

كان يدعو الله، ويرتل القرآن في غير ترتيب. كل آية جاءت على لسانه ذكرها، وكل دعوة قالها بعد دقائق، أو ربما سنوات، لم يكن «يوسف» يعلم كم دهرًا مر وهو في تلك الحالة من الهلع؟ استفاقت «إيرينا» وهي تتمتم بكلمات ليست مفهومة، فحمد الله على عودتها.

وظل يردد أحبك وهو يضع الكمادات.

بينما زوجة الحاج ذهبت لتعد لها شيئًا يساعدها على مقاومة الإعياء، وعادت بمخلوط لا يعلم مكوناته، وصارت تقطر في فمها، وتساعدها على البلع.

حتى غفت ثانيًا، حينها خفق قلب «يوسف» خفقات الموت الآخر، كان يخفق كمن يصارع الموت متشبثًا بآخر نفس للبقاء.

ولم يهدأ إلا حين رددت زوجة الحاج بأن الحمى قد زالت، وعليه أن يدعها تستريح، وستقوم بخير. فغيرا لها ملابسها المبللة، وتركاها تنام في هدوء، وخرجا.

جلس في باحة الدار بجسده، بينما روحه كانت تحلق في السماء باحثة عن إجابات، لم يكن لديه أسئلة أو كانت كل أسئلته يعلم أنها خلقت بلا إجابة.

القدر غريب غير مفهوم، كأنه دومًا أعلى من إدراكنا، هناك أبعاد أخرى لا نراها، ولن نراها إلا بعد حين، وقد لا نراها أبدًا.

عيناه تدمع الآن بدون تفسير.

العشق يأتي بدون تفسير، والموت يأتي بدون تفسير، والقدر يحدث دون تفسير.

لماذا يستوجب علينا وضع تفاسير للدموع، للحزن، للصمت، للموت،؟ يستوجب علينا وضع التفاسير؛ حتى نسهل على عقولنا فهم الأمر.

قطع كل هذا دخول الحاج «صالح» الذي كان يبدو متعبًا. وحين

كان يلقي عبارات اللوم الممزوجة بالترحاب لـ«يوسف» قاطعته زوجته بخبر تعب «إيرينا».

كان الخبر كافيًا بتغير نبرة صوته، ومجمل كلماته.

جلس الجميع في الفناء، كأنهم منتظرون قطارًا لا يعود، ومطرًا في نهار صيف شتت شمسه الغيوم..

الصمت يخيم على الجميع، وكأنهم تصلبوا، كلٌ يسبح في شيء ما خارج إدراك الجميع، وأعينهم معلقة على باب الغرفة.

بدأ الحاج «صالح» في ترديد آيات القرآن في صوت واضح ولكنه ضعيف، بينما غفى «يوسف» على الأرض مستندًا إلى المقعد، وقد تخبطته الأحلام المشوشة، فقام مفزوعًا إلى «إيرينا» التي استفاقت فور دخوله، فلم يعلم هل أفاقها أم سبقته ولم تنادي قبل جبينها؟ وصار يردد الحمد لله! وأحبك كثيرًا!

بينما الحاج و زوجته على الباب..

بعد ساعة أو أكثر تجاوزت «إيرينا» مرحلة الرقود وحاولت القيام، فساعدها، وأطعمها من حساء زوجة الحاج، ونامت على صدره، وغفت مجددًا، فغفى على صوت نفسها الهادئ، كما الأطفال.

عند الفجر، أيقظت هي طفلها الكبير، كان سعيدًا، وحاول جرها إلى حضنه مجددًا ومواصلة النوم، إلا أنها قالت بضرورة العمل كي لا يغضب الحاج أكثر.

أخبرته بأنه كان قلقًا، و أن الحزن أصابه لغيابه، فقام متمتمًا بكلمات غير واضحة، وجرجر مشاعره خارجًا صوب الحانوت.

وفي الحانوت تهلل وجه الحاج «صالح» لعودته، تجاذبا أطراف الحديث حول لِم كل تلك الغيبة؟ وماذا فعلت؟

ولكن «يوسف» لم تكن إجابته شافية، دائمًا ما يغلفها بالغموض والكلام الذي يحمل كل المعاني في طياته، حقًا ماذا يقول؟! كنت أتدرب، ولماذا اتدرب؟! لأكون المهدي المنتظر، ملك مصر، المسيح المخلص. أم ماذا يقول؟ اكتشفت شغفًا مباغتًا، هل سيفهم كلماته إن قالها؟

ظلا يعملان في صمت، يتخلله بعض الكلمات، وعند الانتهاء عادا إلى المنزل.

ولأن كلمات «يوسف» لم تشف فضول الحاج وقلقه، جره ثانيًا بالحديث، وطلب أن يقص عليهم أيامه،

- فلتقص علينا يا «يوسف» أخبار عزلتك.

- الخبر يأتي يا سيدي من أهل الحياة، أما أنا فكنت منقطعًا عنها.

- لا جديد لدينا، نصبح فيما نمسي فيه، غير أن جامعي الضرائب زادت زيارتهم.

- هذا ليس الميعاد.

- وهل يعرف الظلم موعدًا؟!

- وهل لا يعرف المظلوم شكوى؟

- الشكوى لغير الله ذل.

- الذل ما نعيش، والله لو كنت مكانك ما دفعت.

- غيرك فعل، وأرغموه على دفع حياته عوضًا عن الذهب، ثم نهبو بيته، وأخذوا الذهب.

- يا الله!

- دعك من الحياة يا بني! ماذا وجدت أنت؟

- نفسي.

- وماذا في نفسك؟

كان بين أمرين إما أن يحكي أو يكذب، فاختار الكذب؛ لما فيه من راحة للمستمع وللراوي:

- تطوق النفس للخالق.

- أصبحت من أهل الطريقة.

- بلى. الطريق.

- وما الطريق يا شيخ «يوسف»؟ «قالها ضاحكًا».

- الحب؟ فالحب هو ما يجعل للحياة معنى.

- ألم تكن تحب؟

- أحببتها أكثر والله الذي نفسي بيده.

ونظر إلى «إيرينا» التي أخفضت رأسها من الخجل.

- أخشى عليك.

- اطمئن الآن، فأنا بينكم، ولن أبرحكم حتى أعود للخالق.

- وفقك الله للخير يا بني! هيا قم، فارتاح، غدًا لدينا عمل كثير.

- أهناك جديد طرأ على العمل؟

- أجل. لدينا عمل مع حامية القاهرة، يريدون سلاحًا كثيرًا، وعلينا أن نبدأ من غد.

- حسنا. هيا يا «إيرينا»! لننم.

- فلتصبحوا من أهل الجنة.

- تصبح على خير يا بني!

* * *

دخلا إلى الغرفة، وتعانقا، وناما في هدوء لا شيء يعكر صفوهما، فقد عاد كل شيء إلى وضعه، ولا ينوي «يوسف» جر الجميع إلى المزيد من المتاعب.

عليه أن يؤدي أمانة العمل الذي ائتمنه عليه الحاج، عند الفجر قام بلا إزعاج لـ«إيرينا» النائمة، وتوضأ، وذهب هو والحاج «صالح» إلى الصلاة، وبعدها إلى الحانوت، وبدآ في العمل،

كان شاقًا جدًا، ومر أسبوعان على نفس الوتيرة،

قد اعتاد فيهم على شدة العمل.

* * *

وفي يوم كان شديد العمل، ترك «إيرينا»، وهي يبدو عليها التعب، وهي نائمة، أخبرته علامات وجهها بهذا، بدأ في العمل وتركيزه كان في البيت، حين دخل صبي صغير الحانوت، وهو يهتف، يا حاج «صالح»! يا «يوسف»! أتاك ولد، أتاك ولد، هرع «يوسف» إلى البيت، ودخل دون استئذان، وجد جمعًا من النسوة، مر خلالهن دون أن

ينطلق بحرف حتى وصل إلى باحة الدار أمام باب الغرفة، فوجد «إيرينا» تبتسم، وعلى وجهها الإرهاق ظاهر للعيان، وتحمل طفلها بين يديها، فالتقمه، ونظر في وجهه، وركع بجوارها يحتضنها، وقال إني سميته أحمد.

دقائق وكان الحاج «صالح» بينهم، يبارك لهم مولودهم، وهو يردد حمدًا لله على سلامتك بنيتي! مولودًا مباركًا وخير ذرية لكما!

وتعالت الزغاريط من كل صوب.

قضوا اليوم في سريرها، ويتوسطهما الطفل.

الذي كان يحمل صفاء وجه أمه، ويبدوا هادئًا مثلها، لم يبكِ بعد لحظه الولادة مطولاً، وظل هادئًا ساكنًا أغلب الوقت.

في اليوم الثاني اقتلعه الحاج «صالح»، والعمل من بينهما، وكان يهرول بعد العمل؛ لرؤية صغيره ومحبوبته من جديد. يزداد الاشتياق في كل يوم عكس كل البشر.

بعد الأسبوع الأول للطفل، لم يفتحا الحانوت بل اتجها إلى الراعي على حدود الفسطاط، وابتاعا منه ثلاثة خراف، وأقاموا الحفل ليلًا على صوت الشاعر والمداح وسط مَأْدُبة طعام من اللحم، والعيش، والأرز، دعا فيها سرًا «دبجن» و الوزير اللذين تنكرا في أزياء عربية كعادة خروجهم للعرب.

مرت الساعة تلو الساعة بعد العشاء، في هذا الصخب من نسوة في أعلي البيت، ورجال في الباحة حتى انفض الجمع، ولملم الخدم الطعام، والفوضى المتراكمة، وعاد إلى حضن طفله وزوجته، تحدثا

عن العودة للبيت، وقد عادا بعدها بيومين.

كان الأمر شاقًا، فقد نسي كعادة الرجال تنظيف الفوضى التي تركها بعد التدريب هنا، لكنه كان ممتعًا، فقدم لها عرضًا بالسيف، كان يطير، ويلطف، ويضرب، ويتموج في الهواء، كانت أنفاسها وشهقاتها تتعالى مع تموجاته.

عيناه في عينيها حين ركع أمامها كفارس، ووضع السيف بين كفيها، وأقسم قسم الفرسان على ألا يفارقها، ولا يترك شيئًا يعكر صفوها، ناما الليلة، وكل ليلة متعانقان بعد نوم الطفل الهادئ، بعد أيام قد سلما هو والحاج «صالح» صناديق الأسلحة لمسؤول الحرس، وكان قد ذهب عنهما تعب العمل بفعل الذهب الذي حصلا عليه، وتحت وطأت الراحة والفرح الذي يشعر به الحاج «صالح»، قرر «يوسف» أن يفاتحه في أمر السلاح مرة أخرى.

كان الأمر أسهل حينها، لم يبدِ الحاج «صالح» أي تعليق، وسمح له على الفور، تعلم الحاج سريعًا، سار يعرف أنه لو لم يكن يريد البوح فلن يبوح، وإن كان يريد الفعل سيفعل، ترك يعمل على ما يريد، لم يهدأ حينها «يوسف» برهة بل قام من فوره لصنع القوالب التي يريد، وأتم صناعة السيف في ثلاثة أيام، وقد حفر عليه اسم «إيرينا» و«أحمد»، وعند الانتهاء جعل الحاج «صالح» يراه، فانبهر بشكله، وبخدعة الكورة، والسلسلة في آخره، وعند الانصراف عاد «يوسف» إلى البيت، ووضع السيف في يد «إيرينا»، فكانت لحظة أسطورية.

قد تخيله للحظة أنه قد نزل لتوه من فوق جبل الأوليمب بعد أن باركته الآلهه هناك.

غدت الحياة هادئة سعيدة بين اللعب بالسيف، واللعب بالصغير، واللعب في الفراش، والعمل الذي اعتاد عليه، وعضلاته التي ازدادت تضخمًا مع الوقت، وحفلات الشعر الذي صار يحبه فجأة، وصديقه الشاعر الذي أصبح يخطف من وقته ساعات معه يتسامران، ويحكيان، ويضحكان.

كانت الأمور عادية، فليس هناك هدوء إلى الحد الذي تتوقع بعده عاصفة.

وليس هناك مشاكل تذكر غير أنه ربما قل العمل قليلًا، كان الجو كئيبًا خانقًا في يوم ما بعد صلاة الظهر، يوشكان على الغلق باكرًا، اليوم الحرارة مرتفعة، ولا توجد حركة في السوق، ولا قوافل دخلت نطاقهم اليوم، لا يظنان أن العمل اليوم يحتاج وقتًا أكثر من هذا،لذلك كان قد أحضر سيفه من البيت؛ ليدخل عليه بعض التعديلات بالفضة كنوع من التباهى بكنزك الخاص.

في حين أن «إيرينا» والصبي من خلفه يجلسان بجوار الحاج «صالح» الذي كان يلتقط بعض الفاكهة التي اشتروها اليوم، ويدس يده في أجوله الفاكهة بطريقة طفولية.

كانت الأصوات تتعالى في بداية السوق باتجاه القاهرة، لا أحد يعرف ماذا يحدث؟!

ولكن لم يستغرق الجهل طويلًا، بدا كل شيء أمامهما واضح بمجرد أن اقتربت الأصوات، نعم إنهم جابي الضرائب، هو ليس موعدهم، وتلك ليست عملية جباية، يمكن لطفل أبله لم يتجاوز

مرحلة أن يرتدي سرواله وحيدًا أن يخبرك أنها عملية سرقة ونهب.

المشادات انتشرت في الحوانيت، حولهم أجولة يحملها الجنود، وما ليس الأمر إلا أن وجد جنديين بينهم في الحانوت يطالبان بكل المال الموجود باسم الخليفة، قل باسم الشيطان يا سارق! هذا ليس الميعاد.

كان يوسف يبدو عليه الغيظ، ولكن الجنديين كان كلامهما مع «صالح»، وفيما يبدو أن أحدهما وكزه، فكانت «إيرينا» تصدر صوت صراخ، واعتقد أنها حصلت على دفعة هي الأخرى، الأمر غريب كليًا وسريع جدًا، أعتقد أنك بحاجة إلى إعادته بالتصوير البطيء؛ لكي تتمكن من أن ترى من بادئ الأمر، وكعادة الأزواج العرب لم يفكر أبدًا في ماذا سيفعل؟ هو لم يفكر من الأساس لأكون أكثر دقة، كانت رأس الجندى بين قدمي «إيرينا»، وطفلها وملابسها مغطيان بخليط من الدم والتراب، بدأ الآن يوسف يعزف منفردًا سيمفونية الدم، والغضب، والرجولة، والشجاعة.

لم يمتطِ فرس الفرسان بعد، ولم يفتح بلادًا ويخضع شعوبًا ولكن إن مات الآن أو بقي حيًا، سيتحول إلى أسطورة، سيتغنى الشعراء باسمه في مجالسهما، سيصير الجندي المقتول عشرة، أو ربما جيشًا، أو ربما خليطًا من الجن، والإنس، والغيلان، والعنقاء.

كانت السيمفونية تزداد سرعة لم يكن أحد يعلم ما يحدث؟ وكان الأمر خاطفًا، سيفه الرفيع مصمم للقتل لا لتكسير العظام، لن يصيبك بعاهة، لن يقطع ذراعك، ولكنه سيقتلك وحسب، بنصلة أم بالكرة التي ربطت في آخره؟ لا يهم، المهم هو أنه سيقتلك.

بدأ يتلوى «يوسف» في الهواء، ويرقص يديه بالسلسلة الطويلة التي كانت تراقص الكرة على أدمغة الجنود، وتحصد منها ما تحصد، وكان يتفادى الضرب في خفة لا يعلم هو من أين؟ ربما عبث الأدرنالين في خلاياه فأنتج ما يحدث، تدخل المخرج؛ ليوقف العرض، قائد الحرس بصوته الجهوري وقامته الفارعة، وصهيل جواده المعروف، وقف على مقربة، وصاح أن اصمتوا.

كانت الصيحة كالنفخ في السور، فتوقف الجميع، وأسدل الستار عن هذا الفصل، تكبد هو بعض الجروح في ظهره وذراعه، وكلف القائد عشرة من جنوده الأوفياء.

كنا نتحدث عن أسطورة لأجل جندي، أما الآن نتحدث عن عشرة، ربما كتبت فيه معلقة لاحقًا، أشار القائد لـ«يوسف» كي يأتي ولكن «يوسف» لم يجب، ظل ينظر في عينه وصدره الشاهق، يعلو، ويهبط، ولا يستطيع تمييز الدماء من الوحل على ملابسه.

بدأ يدرك حجم ما وضع نفسه فيه، كان بكاء «إيرينا» مسموعًا رغم الحشود، وبكاء الطفل كذلك.

وضع الحاج «صالح» يديه على رأسه، كان مشهدًا دراميًا يليق برجل يقدم إلى حبل المشنقة أو لنقل المقصلة.

أدرك أنه هالك لا محالة، إن استجاب للقائد سيقتله القائد وإن لم يستجب فالتوقف قد أعطى فرصة للجنود بالالتفاف حوله، هو إلى فناء في النهاية.

جيناته تحركت، وحركته بأن يمتثل للطلب، ربما يكون هذا

استجداء للعطف، لا يمكنك هنا أن تقف، وتقول آسف، لقد قتلت عشرة من رجالي بدون قصد.

كان أحدهم يريد سرقتي وأنا أرفض أن يمس مالي، وزوجتي، وطفلي.

القائد يعلم، وأنت تعلم، والخليفة نفسه يعلم أنه جاء ليسرق، وأنه كان مطلوبًا منك أن تسهل مهمته، وتعامله بود، عسى أن يقبل سرقتك دون أن يسبب لك الأذى.

دنا «يوسف» من القائد، وكانت حلقة الجنود قد احتدمت عليه، فلا فرار اليوم، صوت «إيرينا» والطفل أصبح أكثر وضوحًا واقترابا، هتف القائد أو ربما صرخ في وجهه بصرامة إن جاز التعبير.

- أعطني سلاحك.

كان ينظر حوله، هو شعور، غريب، ممتزج، صعب الفهم بين القوة، والضعف، والسطوة، والانهزام، والانهيار كمن حاول إنقاذ حياة قط على الطريق، فركله في نهر ثائر.

لم يجد بدًا، فكل الدمار من حوله، ووجوه الجنود المتحفزة الغاضبة الخائفة في الآن ذاته، ووجوه الناس المكفرة، ووجه «إيرينا» الباكي المنهار، ووجه الصبي المحتقن من الصراخ.

نكس رأسه إلى الأسفل، ورفع السلاح إلى القائد، سحبه القائد في حزم، وقوة، ولفَّ لجام الحصان على يديه، وهتف فى جنديين كانا خلفه، قيداه، وألقيا به في السجن.

تعالت صيحات الجموع، فتلاشت كلاماتهم تصير نوعًا غير معروف من اللغات، لا تفهم، هل هو فرح، أم غضب، أم تهكم، أم

اختفاء؟ لا تفهم جيدًا ما يقولون؟

الأمر يشبه موسيقى داخلية للمشهد، «إيرينا» تفقد وعيها، ويحملونها للبيت.

مر عبر الفسطاط والقطائع وهو موضوع كجوال قمح على ظهر حصان، أبواب القاهرة تفتح للداخلين، ممرات ضيقة، وسور شاهق، يمكنك أن تميز أنه السجن، كان كذلك حقًا.

في غرفة ضيقة، بها مصطبة مرتفعة عن الأرض، وشباك واحد في الأعلى بعيدًا عن أن يدخل ضوء كاف، جلس يوسف على الأرض لا أصفاد في يده، ولكنه يشعر بألف خيط خانق على جسده الدامي وعقله المنهك، لم يكف عن التنفس بسرعة الخوف، ربما هو الخوف، حاول التركيز على ما سيحدث.

مر النهار و الليل، وهو يحاول أن يعرف كيف بدأ ذلك؟ لماذا التفت بتلك السرعة و بدل من دفع الجندي عن «إيرينا»، دفع سيفه على رقبة الجندي؟ لقد قتلت الآن نفسًا حرم الله قتلها إلا بالحق، وأليس هذا حق؟ في قرارة نفسه لا يعلم، يشعر أنه تورط في الأمر كله، دافع عن «إيرينا»، وبعدها كان واجبه الدفاع عن نفسه، إن لم يقتلهم كان سيكون قتيلاً، وماذا عن الآن؟ مسجونًا ينتظر حكم الإعدام، كان يظن أنه مقتول في السوق، بالتأكيد لم يكن يتوقع أن يقف القائد، ويطلب منه إلقاء سلاحه، وأن يبقي يديه مرفوعة، ثم يدججه بالأصفاد؛ ليتلقي حكمًا عادلًا، ظن أنه فور إعطائه السلاح، سوف يخلط دمه بدم الجنود على النصل، لكن القائد أعطاه يومًا آخر يشعر فيه بالسجن.

وعندما مال قرص الشمس حتى يدخل من النافذة الوحيدة، وبدأت الغرفة في الإضاءة كان يسمع أذان الظهر، ما بال «إيرينا» الآن، والصبي، والحاج؟ ما بهم جميعًا؟ هل هم بخير؟ لم يعطه القدر الوقت الكافي للتفكير، فُتح الباب، وظهر جنديان، وقاما بجره في صمت، حتى هو لم يسأل إلى أين؟

للموت هيبة تعرفها في وجوه الحاضرين، كان يمر في الممرات حتى وصل إلى قاعة ما أوسع، بها عدة مقاعد، ومقعد كبير في الواجهة، همس له الجندي، تأدب في حضرة القاضي، وانحني.

دخل القاضي، وبجواره قائد الحرس، واثنان لا نعلم من هم؟ وجه له القاضي عدة اتهامات: هل قتلت؟ كانت هي الجملة التي علقت في ذهنه مما قيل، لا يوجد محامون هنا، نحن نتحدث عن قضية دفاع عن الشرف، والمال، والنفس:

- هل قتلت؟

- أجل، قتلت ولكن كان ذلك دفاعًا عن الـ...

- تقصد دفعًا لأولى الأمر (مقاطعًا).

- كان يسرق.

- كان يجبي الضرائب.

- ليس موعدها.

- ولي الامر هو من يقرر الميعاد، سيحكم عليك بالحكم الشرعي لتقطعوا يديه وأرجله من خلاف وليصلب، هذا جزاء من أرهب المسلمين.

علم في قرارة نفسه أن هذا لن يفيد، الحكم جاهز، والجلاد جاهز، والسوق جاهز.

قال «يوسف» لن أموت هنا، هل أعيش بلا أرجل أو أيدي؟ انفض الجميع، وأعادوه إلى الزنزانة مجددًا، نام، أو فقد وعيه على وجه الدقة حتى أحلامه أبت أن تكون واضحة، لكن وجه «إيرينا» واضح.

في صباح اليوم التالي عندما بدت السماء زرقاء، وقرص الشمس لم يحمِ ناره بعد، كان قائد الحرس بجواره في الزّنْزانة بينما يدور المنادي في الفسطاط، أن اليوم سيقتل من قتل، ويصلب من خالف، ويقطع أرجل من أرهب المؤمنين.

موكب القاهرة على مشارف الفسطاط، قائد الحرس وعلى حصانه رجل مغطى الرأس بقماش.

تجمهر الجميع، و«إيرينا»، و الحاج، وزوجته أتت لتلقي نظرة أخيرة لكن أين الوجه؟ هو مغطى، سيحرمها حتى من رؤية وجهه.

بدا الأمر كحلبة رومانية، دوائر مغلقة من البشر حول بعضهم البعض، ومنصة في المنتصف يرقد عليها الفتى بجسده الذي بدا أكثر سمرة، لم يكن يتشنج أو يصرخ مستسلمًا لما حوله كدمية وحيدة في مغسلة تدور، أمسكه الحارس ضخم الجثة الذي كان يغطي رأسه، ويخفي معالم وجهه بالكامل، وأرقده على بطنه فوق المنضدة المعدة لذلك، وأمسك آخرون يديه وقدميه، لم يكن يبدو أنه سيهرب، لقد كان مستسلماً، أظنه كان ميتًا، أو يعلم أنه هالك حتما، للموت رهبة تجبرك على الصمت، لا جدال في الموت، الموت

هو الموت شعورًا لا تستطيع أن توصفه بأنه شيء آخر غير الموت، قرأ المنادي الحكم، ولم يعلق أحد، الصمت يعلو الوجوه، هذا الذى قتل أمامنا أمس عشرة، اليوم بلا حراك، قال الحارس « الله أكبر! بسم الله!» سارت همهمات في الصفوف بلا معنى، هوى السيف السميك على ساعده الأيمن، فوقع الذي كان يمسكه به، وصدرت من الفتى صرخة طويلة تمس كل الآذان، تحطم جهازك العصبي.

الهمهمات تزداد، والصريخ قد صمت، ويبدو أنه صمت للأبد، أكمل الجلاد مهامه، قطع اليد الأخرى والساقين، وربطاه على صليب، ورفعاه فوق المنصة، وانصرف الناس، انتهى العرض أيها المشاهدون، وعليكم أن تعوا الدرس جيدا،من لم يتوسل لنا حتى نسرقه، ونهتك عرضه، ونستبيح ماله وأولاده، سيحدث فيه هذا، سيعلق على الصليب، سيقطر الدماء منه حتى يفرغ من الدماء، سيأكل الذباب منه ما يشتهي، سيصير مشهدًا يرعب الأطفال في أحلامهم، ويقتل أحلام الكبار فى عقولهم.

وسط كل هذا الزحام الذى انفض، بقيت «إيرينا» وحيدة عند الصليب، تتوسل الناس أن ترى وجهه، أريد أن أراه، هو لم يمت، يسحبها خالها بالقوة، واللين، وشتى الحيل حتى الدار، هربت من بين ذراعيه عن الفناء الداخلي، وولجت إلى الغرفة، وأغلقت الباب، وارتمت خلفه تبكي حينها رأته على الأريكة:

- كنت على يقين بأنك لم تمت، صرخت فيهم أن ينزعوها من على وجهك.

- لم أمت، لأنني وعدتك أن أكون معك للأبد.

- «دبجن» قال لن تموت.

- لا تصدقي خرافات الوثنيين.

- قلت لى إنه يعبد الله بطريقته وأنا أصدقك أنت.

- أحبك.

- أنا أحلم.

- لا أنا هنا حقًا.

قام، والتقفها من الأرض، وضمها لصدره، وضعت رأسها بين صدره كمن تبحث عن نبضات القلب، تلك الرائحة التي تعرفها هي فقط رائحة خلاياه، وأنفاسه، وجسده.

- لكن كيف؟! ومن مات؟

- اهدئي قليلاً، بعد المحاكمة زارني القائد صباحا، وعرض عليَّ أن أعيش مقابل شيء، ولقد وافقت قبل أن أسمع، أولًا: يجب ألا يعرف أحد أنني حي، ويجب أن أظل ميتًا أمامهم جميعًا. ثانيًا: سيعهد إلي فرقة في الجيش، أدربهم على القتال وفقًا للسلاح الجديد الذي أبهره؛ لذلك تركني أعيش، وكان يجب أن أخبرك، منعني في بادئ الأمر، وكان الموت علي أهون من أن أتركك تتعذبين ظنًا أنني مت.

ضمته بقوة أحبك! أحبك! ظلت تردد الكلمة مرارًا.

- الآن سأرحل، وسأعود مجددا؛ لننتقل إلى بيت جديد.

- وخالي!؟ ماذا سنخبره؟

- دعى لي الأمر، لا أعلم كم سيستغرق الأمر؟ لكن لا تبتأسي، أنا

دومًا بجانبك أينما كان جسدي؟ أنتِ بداخلي.

- لا تتأخر، أشتاق إليك.

* * *

وضمها في قبلة دامت ما دامت من الزمن.

رحل بعدها «يوسف»، كما جاء متخفيًا إلى أسوار القاهرة، قابل جندي، وحدثه أنه أبو يوسف الفارسي، ويريد لقاء القائد، ويبدو أن الجندي كان يعلم بقدومه، فأدخله إلى القائد في مقصورته فوق باب زويلة، وجد القائد يجلس على الأريكة متكئًا ممسكًا بسيف «يوسف» يتأمله.

دخل «يوسف»، وحيّا القائد في أدب، فأذن له أي اجلس.

وتكلم بعدها، وهو لا يزال ناظرًا إلى السيف:

- حدثني عن دينك يا «يوسف»!

- ديني هو الإسلام يا قائد!

- أي إسلام؟ إسلامنا أم إسلامكم؟

- قل إن الدين كله لله مولاي!

- وقد اختص الله المؤمنين، قل لي ما قولك في علي ومعاوية؟

- قد ماتا منذ زمن، أعلم ما تصبو إليه مولايا القائد!

- المؤمن كيس فطن.

- الأمر لا يحتاج، أنتم شيعة الإمام علي، أو الإسماعيلية، كما تقولون، وأنا على سنة النبي محمد، لا أجد بيننا خلاف.

- و كيف؟

- الخلاف كان لأهله، أما الآن علينا أن نتعايش في سلام، الدين لله، والدولة لكم، ماذا تريد غير ذلك، إن الله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

- ولكن قل لي كيف أعطي الأمان لمن يراني خارج ملته؟

- بيننا عهد، ولن أخلف أمام الله عهدي، وبيني وبينك هذا، لن أحدث أحدًا عن ديني ولا أريد أن يحدثني أحد عن دينه، عهدك علي أن أصنع فرقة من رجالك بسيفي هذا، وعهدي ما سمعته منك الأمان.

- ونعم الرأي، تبدو ذا رجاحة عقل.

- طوع أمرك يا مولاي!

- من أين تبدأ؟

- السؤال هو كيف أبدأ؟

- لك ما تطلب، ولي ما طلبت.

- أريد أن أخبر أهلي كلهم بما أنا فيه، وأعدك بكتم السر بيننا، أريد معاونة حماي في الصنع، لا يخفى عليك أنه أمهر صانع سيوف هنا.

- وأنت، ألست بصانع؟

- أنا تلميذ عنده ليس إلا.

- لك ما تطلب، سأحضره لك.

- بعد حضوره اعتبر أمرك مقضيًا يا مولاي! ولكن أريد مكانًا خاصًا لي، ورجالك الذين أدربهم يكونون بمعزل عن الناس، أريدهم شبابًا لم يتعلموا بعد شيئًا، وأعدك أن أسلمهم لك رجالا أشد من كل جيشك بأسًا، وقوة، ومهارة.

- سأبني لك بالمقطم حصنًا لكم، وحتى حينها ستبيت هنا ولن تبرحني.

- لو تأذن لي أن أبيت مع أهلي.

- أما هذا فلا، يكفي إطلاعهم وحسب.

- أمرك مولاي!

* * *

حضر الحاج «صالح» إلى السور في حينها مشاعر مضاربة بين عدم التصديق والفرح الشديد، حدثه «يوسف» عما حدث تفصيلا فرد الشيخ:

- حمدًا لله على سلامتك بني! ستفرح «إيرينا» وخالتك فرحًا شديدًا.

- «إيرينا» تعلم، أخبرتها صباحًا، ولكن إن كُشف سري فلن يحدث خير.

- اطمئن يا ولدي! فأنا أحرص على حياتك منك، لكن كن حذرا هم ليسوا قوم عهد ولا من الإسلام في شيء.

- لا تقلق سأكون بخير.

- كلي أمل في هذا، لقد ذاع صيتك في الفسطاط، وأجوارها يا ولدي! أخشى أن يقتلوك لصيتك.

- اسمي هو أبو يوسف الفارسي، «يوسف» قد مات أمام الناس، والآن حدثني عن السيف، كم تريد لكي تصنع لي أربعين سيفًا من هذا؟

- فليعينني الله عليه.

- وليعينك مال الخليفة، فلتغالي في صنعك، و اطلب ما تشاء من أموال، استرد ما أخذوه منك عنوة أضعافًا مضاعفة، تلك الفرصة لن تتكرر.

- ليقضي الله أمرًا كان مفعولاً.

- والآن ارحل، وانتظر مني رسول يحدثك عني، ويقص علي أخباركم، أخبر «إيرينا» أني سأكون موجودًا متى احتجتموني.

- لعل الله لا يريد بنا إلا الخير، وداعا يا ولدي!

احتضن «يوسف»، وربت على كتفه، وذهب إلى الفسطاط، بينما «يوسف» ظل يدور حول نفسه في الغرفة، فسقطت عينه على الأوراق، فحملها، وظل يعبث بالحبر عليها محاولاً رسم المعسكر الذي يريد، هنا بيات الجنود، وهنا ساحة للتدريب ومكان للطعام، وهنا البائر، وهنا...، وهنا...، وهنا...،

ظل هكذا ما ظل من الزمن، ولم يدخل عليه أحد حتى أتى القائد، وخلفه جندي يحمل صينيه عليها الطعام، أكلا معًا، وظل «يوسف» يشرح له ما في الورق، أحتاج إلى هذا، وسنبني هذا هنا، وهذا هنا،

وقد اتفقت مع الحاج «صالح» على أربعين سيفًا مثل سيفي، ولكني سأحتاج إلى سيوف عادية، ورماح، وعصى كثيرة، التدريب سيكون ثلاثه أشهر، لن يزيد عن هذا، ولكن خلال تلك المدة لن يبرح أحد منا الحصن، سيبيتون مائة يوم، شغلهم الشاغل هو التدريب وفقط، تحدث مع القائد عن البداية، من الغد سيذهبان ويختاران القطعة المناسبة من الجبل، ويأمر البنائين بالبناء، ولن يدوم هذا أكثر من ثلاثة أيام، سيعملون ليلاً ونهارًا بأعداد مضاعفه، وقد أخذه القائد لبيت بجوار السور يبيت فيها الجنود، وأمن له غرفة للمبيت هنا حتى انتهاء الحصن.

مر اليوم طويل، وهو وحيد في الغرفة، تتخبطه الذكريات، ويقتله الشوق إلى «إيرينا»، ولكن إن لم يفعل ستشتاق هي إليه، حتى أصدقاء المستقبل جاءوا إلى مخيلته الآن، ماذا إن لم يرحل من البداية؟ ماذا لو أنه فوت موعده مع «سلمى» ولم يذهب إلى المأذنة في ذلك اليوم؟ لكن أين هو الآن؟ هو بنفس المكان ولكن أين المسجد والمأذنه لم يبنيا بعد؟ يبدو هذا البناء كالسجن الذي نزل فيه منذ يومين.

يأمل أن ينتهي الأمر سريعًا، لا شيء أحب إلى الرجل كبيته الذي فيه حبيبته وولده، مرت خمسة أيام متعبة من البناء، المشاغل كانت تضيء جبل المقطم ليلاً، ولا يعلم أحد لماذا؟ دام العمل، والعرق، والضجر، الصرح يكبر أمامه، وامتلأت البئر بالماء، وفرشت أسرة الجنود، وحجرة قائدهم أبي يوسف الفارسي، في آخر ليلة قبل الاجتماع بالجنود تحت ضوء القمر، والمشاعل المتناثرة، كان

«يوسف» و«المعتصم بحبل الله»، أجل، هذا هو القائد، كانا جالسين يتأملان الصرح الذي اكتمل، حينها قطع القائد الصمت:

- عليك باختيار كنية، الكنية مهمة لقائد مثلك.

- لا أظن أن الأمر يستحق، سأنهي مهمتي، وأرحل، هذا اتفاقنا.

- لنقل سيف الله أبو يوسف الفارسي يبدو جيدًا.

- ولكن كان لا بد، ليكن سيف الدولة.

- ألم تقل لي إنك مسلم؟

- وماذا تغير؟

- لا تريد اسم الله باسمك!

- لا أريد للدم التمسح في اسم الله، أنا هنا لأخدم الدولة؛ لذلك ليكن سيف الدولة.

- ولكن الدولة تخدم الله.

- هذا من وجه نظر الدولة.

- أترى أننا لا نخدم الله؟

- حاشا لله أن أفتري عليكم بسوء.

- إذًا ماذا تقصد؟

- هل تقبل رأي من غير نفاق أو رياء؟

- قل، ولا تخف، قل، وليكن بيني وبينك.

- الدولة هي الدولة، لا تخدم أحدًا غير مالكيها، هذا ينطبق على أي دولة، ربما تخدم شعبها بعض الشيء لكن بالأساس هي تخدم

نفسها، الله تركنا في اختبار؛ لنعبده لا لنخدمه.

- يبدو كلامك أقرب للمنطق، لو كان غيري لقتلك بتهمة الادعاء على الخليفة.

- قلت لا أدعي على أحد، أنا فقط لدي طريقة في التفكير تختلف عن الجميع هنا.

- هل تعرف «الإسكندر»؟

- ومن لا يعرفه؟

- يقولون إنه ذي القرنين، سمعت عن مكتبته، وزرتها أو زرت ما بقي منها، ياله من علم هائل!

- أجل. ولكن دمر باسم الله مرارًا، لندعنا من هذا، أتيت لأعمل، ووعدتك أن أعمل وفقط، لا لنشر ديني، أو فكري، أو أي شيء آخر.

- حسنًا. ليكن يا سيف الدولة! من السيئ أن يرحل رجل مثلك، سيكون لك شأن عظيم هنا، الآن اذهب للنوم، غدًا يوم طويل، بعد الفجر سيكون رجالك أمامك، ومائة يوم أخرى ليكونوا رجالي.

- غدا ليلًا سأذهب لأرى ماذا صنع الحاج «صالح» بالسيوف؟

- لك ما طلبت، وداعا يا سيف الدولة!

تركه القائد ومضى، ودخل هو إلى مقصورته لينام، لم تمر ليلة سهلة، داعبته الأحلام، وعذبته كثيرًا كل ليلة.

مر على الحاج «صالح» متخفيًا في آخر الليل قبل الفجر بقليل، وطرق الباب ثلاثًا، ففتح الحاج «صالح» متثاقلاً وهو يعلم من الطارق هو الموعد، أدخله، وأحضنه في الرده المؤدية إلى الفناء.

تحدثا سريعًا عن السيوف، وأوصاه أن ينقش على كل السيوف «يوسف» من الأسفل، ثم دخل إلى «إيرينا» النائمة، قبَّل جبينها فاستيقظت كالمسحورة تدفعه في حضنها، كأنها تمتزج معه بلا كلمات، انهالت القبل بينهما في كل مكان على جسديهما وبكلمات ضئيلة، لم تكد تخرج، حدث الوداع.

- لن أتأخر.

- تغيرت الحياة بعدك.

- مائة ليلة فقط.

- كثير جدًا.

- سأعود من وقت لآخر خلالها.

- لا ترحل، دعنا نهرب.

- لا. كفانا هروبًا، الآن لي بيت، وأنت لي وطن، لا هروب من الوطن.

- ليحفظك ربي لي!

- لن أموت هنا، ولن أغادر، أنا عائد لك لا محالة. تركته بعد أن أثرت يدها في جسده من شدة التعلق، ورحل كما أتى سريعًا.

قبل أن تصل الشمس إلى كبد السماء كان هناك موكب يقترب من الحصن «حصن سيف الدولة»، أربعون شابًا يمشون، ومن خلفهم عربات تحمل أسلحة، ورماحًا، وأقواسًا، وعصي، دخلوا إلى الباحة، وأمرهم القائد بالتوقف، فوقفوا جميعًا بلا حركٍ ولا صوت.

اقترب القائد من «يوسف»، واتجها إلى الغرفة التي في صدر الفناء:

- هـا هم رجالي تحت يديك، ومالي رهن إشارتك، ثلاثة أشهر، ويكون لي فرقة.

- ثلاثه أشهر وأرحل أنا من حيث أتيت.

- فلتكمل اتفاقك؛ لكي يتم اتفاقي معك، هل تريد شيئًا آخر؟

- أجل. أريد رجل دين.

- لم تريد رجل دين في ساحة الحرب؟

- عليهم أن يؤمنوا كل الإيمان إن ما يتحملوه هنا هو للجنة، وإلا فلن يسيطر عليهم أحد، يجب أن يعلموا أن تعاليم قائدهم، وخليفتهم، وأميرهم، هي من تعاليم الإله؛ كي يتحملوا.

- لم أخطأ في اختيارك أبدًا، لو كان الأمر بيدي وحدي لكنت خليفتي في الحامية، لك ما طلبت يا سيف الدولة!

- شكرًا لك سيدي!

- سأتركك الآن مع رجالك، وأمر عليك يوم الجمعة ومعي الشيخ.

- موعدنا بعد يومين.

خرج «يوسف» للجنود، وهو يستحضر في رأسه كل الأفلام الأجنبية التي تحدثت عن مشهد مشابه، كيف سيقف؟ وكيف سيسير؟ وكيف يتحدث؟ ومتى يلهب الحماسة؟ لم يكن الأمر صعبًا على هاوٍ لتلك الأفلام.

من فوق منصته العالية التي ظل يقطعها يمينًا ويسارًا، وهو ينظر للجنود الذين يتعرقون بكثرة من أشعة الشمس فوقهم، لم يلتفت أحدهم، حتى هم لا يعرفون مع من يتعاملون حتى الآن، ولكن

أخبروهم قبل المجيء أن مخالفة الأوامر تعني الموت:

«يا رجال! أنتم هنا؛ لأنكم الأفضل، أنتم المختارون؛ لتبقوا؛ لتخدموا الإله العظيم ربي، وربكم، ورب هذا الكون، سأصنع منكم رجالا كالجبال في ثقل ضربتهم، وكريشة النسور في خفة حركتهم، سأدربكم بسلاح لم يمسسه بشر قبلكم، من منكم يريد أن يكون في صف الرجال؟»

ضرب الجيمع صدورهم بأيديهم ورددوا «أنا» صوت الصدى يشبه جلجلات الرعد نوعًا ما، ولكنه أضعف.

وجوه الفتية تحت الشمس تعطيك إحساس الموت، أبصارهم زائغة، عيونهم تشعر أنها كالزجاج، وينهمرعرقهم، ولا يتحركون، أو يتحدثون، كجذوع نخل خاوية، مفتولي العضلات، نفس الطول تقريبا. قسمهم «يوسف» إلى صفوف، كل صف من خمسة رجال، وعلى رأس كل صف إمام، أشار إلى الغرف، وحمل كل منهم قطعة من كل سلاح، وتوجه إلى غرفته.

لا اجتماع إلا بإذن، ذلك كان القانون الأول، لا يخرج أحد من غرفته إلا بسماع صوت البوق، ولا يحدث أحد بدون أمر من الإمام الأعلى.

بدا الفناء كخلية نحل يتحرك كل فرد إلى الأسلحة يأخذها، وينسل إلى غرفته، وهكذا امتلأت الغرف بالترتيب غرفة غرفة حتى انتهى الأمر.

الطباخون بدأوا في إعداد الطعام، وتوزيعه أمام كل باب، حتى الطباخون كانوا يرتدون أقنعة لإخفاء الوجوه، وقد وزعوا مع

الوجبات أقنعة شبيهة، لن يخرج أحد بدون قناع وجه بعد الآن إلا الأمام الأعلى، ألا ترى وجهًا هو تعذيب قاسٍ جدًا، لن ترى ابتسامة أو حتى تكشيرة، لن ترى شيئًا سوى أعين جامدة كالزجاج، هذا يميت القلب، أنت تتعامل مع مسوخ الآن.

في الأسبوع الأول كانوا يتمرنون فقط بالعصي، يمكنك أن تنظر في أعينهم: لتتأكد أنهم أموات لا شعور، أعينهم كالزجاج، ولا ترى من ملامحهم شيئًا.

الطباخون كانوا يهمسون عند الغرف أن الأسوأ سيقتل آخر الأسبوع، لن يتحدث أحد إليك، لن يلومك أحد على مستواك في القتال، لكنك ستقتل.

الجري في جبل المقطم، حافي القدمين، ورفع الأثقال تحت أشعة الشمس الحارقة، والتمارين الشاقة، وتدريبات التصويب، والقناع الخانق على وجهك، والمعلم الذي لا يكاد يسمع من صوته إلا صراخًا، وتلك الأشباح الخشبية في الفناء التي تقذف عليها الأسهم.

شهرًا كان عصيبًا، مر خلاله قائد الحرس مرتين، لكن دون كلام، يرمي بأنظاره إلى كل هذا التعرق والجهد، ويرحل.

وفي ليلة كان القمر مضيئًا، والفناء بلا مشاعر، سمع الجميع النفير، عليك أن ترتدي قناعك، وتقف أمام غرفتك الآن، عليك أن تكون جاهزًا لأي شيء، تقاذفت فكرة إعدام الأسوأ في كل الرؤوس بلا ترتيب، الجميع ينتظر أن يموت الآن.

الفناء خال من الأشباح الخشبية، يوجد واحد في المنتصف

فقط. الظلال لا يمكن أن تصف لك، هل هذا رجل أم هو من الخشب؟

أحد ما يمر على الغرف يوزع المشاعل على الواقفين، ثم إشعال أول شعلة وتمرر النار فيما بينهم دون كلام، المشاعل كانت كافية بإضاءة المكان وضحت الرؤية الآن، الإمام عاري الجذع.

نادى مناد على القادة بأن يتقدموا خطوة، فتقدم كل من كان يرتدي قناعًا أخضر، وظل الأسود بالخلف، الإمام عاري الجذع، وينظر أمامه، وبيده سيف رفيع لم يروه من قبل، ظهر بعض الجنود غير المتدربين حول الإمام، يمسكون أحبالاً طويلة، ويقفون بينه وبين الدمية الخشبية في الفناء.

التفير قد عاد، ذلك الصوت الذي يأتي من البوق على البرج، ويعني أن شيئا ما جلي، يجب أن يحدث.

تتماوج الأحبال في الهواء وعلى الأرض بارتفاعات مختلفة وشكل متقاطع، «يوسف» يجري نحوها، يقفز، ويلوي جذعه، ويدور في الهواء، ويتخطى، وعند آخر حبل كان يقفز في الهواء، ويحرك ساعديه بالسيف، فخرجت كرة من السيف مربوطة بسلسلة حديد، أصابت رأس الدمية، وسحبها، وهو ينزل للأرض، وضرب من جديد بالسلسلة، فالتفت عليها، فأسقطها أرضا، ثم تحرك نحوها، وصار يقطع في الأجولة فوق الدمية دون أن يمس من جسد الدمية شيئًا.

كان النصل حادًا كأنه يقطع بالهواء، الأنفاس بالخارج مكتومة، لا صوت يعلو فوق صوت هواء السيف وفحيحه كالأفعى، وقف، وأدخل السيف في زمامه، والتفت إلى الجميع، وهو يرمقهم بنظرة غريبة.

كانت عيناه تلمع على أضواء المشاعل، ثم التفت، وعاد إلى غرفته في المنتصف، وانسحب الجنود الذين شاركوا في العرض. فأتى النفير من جديد، أن عودوا إلى غرفكم، ولا يبرح أحد غرفته، فعاد الهدوء يسود المكان إلا أن الرؤوس لن تهدأ الليلة، لم يروا شيئًا كهذا من قبل.

القتل هو القتل، اضرب بقوة وحطم الخشب والعظام، ومزق اللحم، لكن أن تكون خفيفًا تتلوى، وتطير، وتسقط، وتنحني، وتصيب عن بعد بسيف، هو أمر لم يروه من قبل.

أظن أنه لم ينم أحد ليلة أمس، في الصباح كانوا واقفين بعد النفير في الفناء، ثم أتى «يوسف» وهو حامل دمية أمس بين ذراعيه وعضلاته، وعروقه نافرة تحت عين الشمس، وصاح «تأملوا ماذا صنعت؟ لا يوجد خدش هنا، لو كان بشرًا هل كان قد مات؟».

لم يرد أحد، هل هو سؤال أم هي أوامر؟ لا أحد يعرف منذ شهر لم يتحدثوا مع أحد، نسوا كيف يمكن الإجابة؟ دام الصمت دهرًا، زاغت الأبصار في الدمية، فأشار «يوسف» على أحد الأئمة أي جاوب أنت، فقال: «لا سيدي! فجسدها لم يخدش حتى».

فسحبه يوسف إلى جواره، وسأل: «هل لدى أحد منكم إجابة أخرى؟»

فهتف من هتف بـ «لا سيدي!» وسكت الباقون، الساكتون لم يكن لديهم إجابات، ولكنهم لا يضمنون مصير من جاوب، هتف يوسف «انزعوا الأقنعة».

فنزع كل فرد فيهم قناعة، كما يزال عنه الكفن يوم النشور.

«هل يعرف فيكم أحد الآخر؟»، ظلوا يقلبون في وجه بعضهم، ولم يرد أحد، فعاد السوال فهتفوا بـ«لا». نظر للأئمة المتقدمين، وأمرهم بالعودة داخل الصف وليس أمامه.

«اليوم لا إمام هنا غيري، اتلوا أسماءكم من اليمين».

فانهالت الأسماء لم يكن فيهم اسمًا يشبه الآخر.

« اليوم هو أول أيام التدريب، عودوا بعد الغداء، والزموا الصمت حتى تعودوا»، انطلق النفير، فعاد الجميع معه إلى الغرف، أول يوم في التدريب، ماذا كنا نفعل في الشهر الماضي؟

هل كنا نتسلى؟ كنا نمرح، نحن كدنا نموت من الإرهاق، والتعب، والجوع، والعطش.

عند الظهر أتى الغداء للغرف، وبعده النفير، وصلاة الجماعة التي صحبتها خطبة قصيرة، اعتادوا عليها كل الجمعات الماضية، ولكن تلك المرة كان الأمر مباشرًا من الله.

قال الشيخ: إن الله يأمركم بإطاعة الإمام والقائد ما أمركم، يأمركم أنتم، أجل أنتم، وليس عوام المسلمين، أنتم خاصة من أهل الدين، سيزيدكم الله العلم والقوة؛ ليستعين بكم في قتل من خالف تعاليمه، وخرج من الدين، يمكنك أن تصبح بطلاً خارقًا لو قال لك أحدهم بأن الله يعدك بهذا، الدين، يفعل ما لا يفعله الأدرنالين. لو كنت مؤمنًا حقًا كإيمان إسماعيل لتركت نفسك للذبح بدل أن تشعر بالخوف أو الندم، ليس لأنك تعلم أن الله سينقذك، بل لأن أمر الذبح

أتى من عند الله.

لعب الشيخ على ذلك الوتر جيدًا، لعب عليه حتى تملك من أرواحهم، حتى أنه إذا أخطأ في الصلاة، وقال موتوا يرحمكم الله بدل استقيموا يرحمكم الله، لماتوا في الحال، مستعدين لدفع أي ثمن؛ ليظلوا في خاصة الله ولكنه قال لهم الثمن طاعة الإمام، الإمام هو ظل النور الإلهي على تلك الأرض وبينكم، فلا تخالفوه حتى تبقوا في خاصة الله.

كان اللقاء بعد الصلاة، وقف «يوسف» أمام صنم أبيض اللون، به بعض الخطوط الحمراء، الجميع لا يعلم ما هذا الطاغوت؟ لكنهم مستعدون للسجود لو أمرهم بهذا، لن يكرر أحد منهم خطيئة إبليس، لا يود أحدهم أن يطرد من النعيم، ويعود إلى أرض العباد الخائفين من النار، هم هنا ضامنون الجنة، ولا يخشون على أنفسهم من شيء.

أمرهم «يوسف» بالإنصات، وأن يركزوا، وإن لم يفهم أحد شيئًا فليرفع يده، ويقاطع المجلس، ويسأل دون خوف أو تردد.

وبدأ في شرح أجزاء الجسد لهم، وأماكن العروق تقريبيًا، والمناطق التي تقتل بمجرد القطع وبسرعة، كيف يمكن لضربة صغيرة هنا أن تقتلك مثل ضربة هشمت عظام صدرك؟

كان الأمر معقدًا في البداية عليهم، لكن سرعان ما فهموا،ضرب أقل، قتل أسرع، مجهود أقل، قتل أكثر، فوز أكبر.

التدريب النظري انتهى، وها قد بدأ التدريب الشاق، الأمر ليس

بدنيا أبدًا، عليك فقط بفصل نصفي ثمرة عنب بضربة واحدة من الهواء، وقد قال «يوسف» نصفين، لا تدعسها، لا نريد نبيذا هنا، بل نصفين.

تلك الأيام مرت ثقيلة، تدريبات كثيرة ومتداخلة، وفي أوقات كثيرة أثناء اليوم.

وفي نهاية الشهر الثالث وقف «يوسف» وسط الفناء بعد أن اصطف الجميع حوله في شكل دائرة.

وظل يهتف فيهم بصوت مرتفع، طالما حب تلك المشاهد في السينما، تلك اللحظة حين يتحدث الفارس في الجنود، يتحدث وكأن لا صوت بعده في الأرض، وكأنه مصدر كل الأشياء، سأقول: قاتلوا، وستقاتلوا، كونوا أقوياء، وستكونوا كذلك، لا تخذلوني، ولن تفعلوا، تلك الأفعال الآمرة، والجمل التقريرية التي يتفوه بها، و كأنها أمر كان مفعولاً.

الجميع في صمت مريب، الآن انتهى كل شيء، ولكن إلى ماذا؟

لقد مررنا بكل ما مررنا به من أجل اليوم هذا، ولكن إلى ماذا؟ أصيب البعض، وكاد البعض يفقد حياته من شده التدريب؛ لنصل إلى هنا، ولكن إلى ماذا؟ ذلك الشعور حين تفكر في الموت إن كنت من غير المؤمنين، ستجد أمامك علامة استفهام كبرى، هل سينتهي كل شيء الآن؟ هكذا بتلك البساطة والسهولة أعود إلى التراب، ولا شيء آخر، لماذا كنت أعاني؟ لماذا تحملت حياتي بكل ما بها؟ هل من أجل أن أكون لا شيء في النهاية؟

لذلك المؤمنون يبدو أنهم مرتاحون، ويتحملون أكثر، على الأقل لديهم أمل في وجود جنة في نهاية هذا النفق المظلم، والآن هؤلاء الجنود يقفون تحت علامة الاستفهام تلك، إلى أين؟

لا أحد يعلم، تذكرت جملة يقولها «يوسف» لـ«مصطفى» حين يسأل هذا السؤال،

- ماذا بعد؟

- لا بعد.

هكذا «لا بعد» انتهى الأمر الآن، ولكن هناك غد ماذا سنصنع في الغد؟

عرضًا ضخمًا هو قال هذا، سنحتفل، سنقتل الدمى والقوارير، ونقطع الحيونات بنصل سيوفنا، ونقتنص حبات العنب من السماء أمام قائد الجيوش المعتصم بحبل الله، هذا يشبه يوم قيامتهم إلى حد كبير، سيزن المعتصم أفعالهم في العرض.

و من ثم يقرر إلى الجنة أم إلى النار، سيقرر أين؟ سيجيبهم على سؤالهم، هو فقط، من يعرف إلى ماذا؟

عند الفجر خرج من جامع القاهرة موكب الخليفة، سار في بهاء في الشارع الذي يقسم القاهرة إلى قسمين متساويين تتلدي أعين الأميرات، وأبناء الأعيان، والخدم، والجواري من خلف شبابيكم المنقوشه الخشبية على الموكب الذي يتصدره الخليفة بنفسه على حصانه ذي الرداء الأحمر الباهي المنقوش بالذهبي اللامع، وخلفه أمير الجيوش، وبجواره قائد أسوار القاهرة أمير الجيوش، تجاوزوا

القاهرة من باب المحروقي إلى المقطم وما إن شرعوا في الصعود لجاوز سهما أخطأ الخليفة إلى رأس قاعد الحرس فأرداه قتيلاً.

فطارت الأسهم صوب مكان انطلاق السهم الأول، وجرت فرقة من الحرس تمشط المكان حتى قبضوا على أخشيديًا من الموتورين أراد الانتقام، وعاد الخليفة إلى القاهرة، وقد ألغيت الزيارة، لا أحد يقينًا يعرف ما حدث ما عدا الحاضرين.

جاءت الأخبار إلى «يوسف» الذي صعقه الخبر، فوضع نفسه في غرفة لا يكلم أحدًا، وترك جنوده الذين لا يعلمون ماذا حدث؟ وظلوا تحت أشعة الشمس واقفين في صفوف مهيبة بردائهم الأسود، وذات الشعار الذهبي الذي يحمل رمز العقاب الجارح.

لا أحد منهم يعلم ماذا حدث؟ بعد أن أتى رجل يبدو على زيه أنه من حرس الخليفة، تحدث مع أبو يوسف الفارسي إمامهم على انفراد، ثم غادر هو ولم يغادر غرفته حتى الآن.

لكن أحدًا ما لم يقدر على السؤال أو الحراك، لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في هذا العذاب، ولكنهم لبثوا فيه حتى انتبه «يوسف» لوجودهم، وهو يقطع غرفته ذهابًا وإيابًا من شباك غرفته، فخرج، و نادى فيهم أن عودوا إلى غرفكم وألا يبرحن أحد غرفته حتى آمركم أنا أو تسمعوا النفير، هكذا ببساطه دون إبداء أي تعليق أو سبب، كان متخبطًا بشأن وعوده مع قائد الحرس.

لم يكن يعلم ما سيحدث؟ كان آخر يوم له؛ ليعود إلى «إيرينا»، أما الآن فلا يعلم متى؟ ولا يعلم ما سيحدث؟

فكرة الهرب تدق جدران جمجمته من الداخل، لكن إلى أين؟ أو إلى متى؟

التفكير يكون صعبًا في تلك الأثناء، وحرارة الجو تزداد، وكأنها تستجيب لحرارة وجدانه، لا مشاهد، لا ذكريات، لا توهمات، لا شيء مما يحدث، عاد في تلك اللحظات، وكأنه في الفضاء فقط فراغ، رأسه الذي كان لا يهدأ أصبح كصومعة قمح مهجورة، جلس على الأرض متربعًا، وجسده القوي يئن من الضياع، ولكن بعض الطرقات على الباب، كواحة التقمته من صحراء التيه تلك، هرول نحو الباب يفتحه، هذا جندي آخر يخبره بأنه سيرحل؛ ليقابل الإمام الخليفة القوي الذي أخطاءه الموت.

خرج مع الضابط، وركب حصانه الأسود، ذا الغرة البيضاء، المزين سرجه بالعقاب الذي زين به عمامة «يوسف»، شقوا المقطم، وهم يجرون بالأحصنة إلى بوابة المحروقي، ومنها على تمهل حتى القصر مجتازين الطرقات التي فرغت تقريبًا من سالكيها بفعل الشمس.

على بوابة القصر لم يعترضهما أحد، ترجلا حتى البهو الداخلي، وفي غرفة متسعة على اليمن جلس «يوسف»، انتظر طويلاً أو لم ينتظر، فالوقت الآن يمر بلا عجل، وبلا تباطؤ، وكأنه حلم ثقيل تجري بداخله؛ لتفيق من النوم،

دخل الخليفة بلا خدم أو حرس من باب آخر بجوار العرش، ذلك الكرسي المهيب المرصع بالذهب والفضة، جلس الإمام، وأشار إلى «يوسف»، فتقدم في صمت مهيب لا تعكس علامات وجهه ما يجري،

وكأن الحياة قد فارقت وجهه، فلم يعد به ما يكفي من الحياة للتعبير عن حال هذا العالم.

حيًا الإمام دون أن يقبّل يده، فأشار الإمام أن اجلس:

- ما رأيك فيما جرى؟

- مجرد حادث يا سيدي!

- لقد مات أكفأ قوادي.

- أدامك الله حيًا يا إمام! هذا أجله وقد أتاه من الله.

- هل عندك سؤال قبل أن أقول ما جلبتك لأجله؟

- إذا سمحت لي سيدي!

- تفضل فأنت ذو شأن هنا ولست عندي من الصاغرين.

- كنت أنا والقائد بيننا اتفاق، وكنت اسأل عمن سيؤول إليه الأمر من بعده؟

- أعلم بشأن هذا، هذا ما جلبتك لأجله.

- و ما هي حكمتك في الأمر سيدي؟

- أنت لست على ديننا، وهذا لم يخفَ علي، ولكني وجدت فيك الجد، والأمانة، والقوة، والحكمة، الأمر لك يا «يوسف»! إما أن ترحل الليلة عن بر مصر أو تكون مكان قائدك وترحل عن بر مصر، ولكن إلى هنا بجواري داخل القاهرة.

- مولاي أنا.

- اصبر يا أبا يوسف! أنت الآن تعرف أكثر مما يعني أنك غير

قابل للعودة إلى عامة الناس، فكر بحكمتك التي حكي لي عنها، لا يعرف سرك هنا الآن غيري والوزير.

- وزوجتي وأهلي، ماذا سيحدث لهم؟

- إن شئت أبدلناك خيرًا من زوجك.

- ولكني أريد أن تكون لي ومعي.

- هذا يعني أنك توافق الآن؟

- لا سبيل لي إلا أن أوافق مولاي! تعلم أنني لا أكذب، أو أتصنع أي شيء، وأنا أعلم قوتك جيدًا، إن رحلت من بر مصر سأهلك، لقد أتيت هنا، لأعيش في سلام، لم أكن أبتغي من حطام الدنيا إلا هي، وابني، وحياة هادئة في بيت صغير على أطراف الفسطاط.

- ولكن الله كان له رأي آخر.

- فلتكن مشيئه الله إذًا!

- مشيئة الله هي ما يقول خليفته في أرضه، أنت الآن قائد الحرس، ولفرقتك ما تريدون، على أن تقسم بالولاء لي، ولذريتي من بعدي، وما عهدتك من الكاذبين، ستكون لدي من المقربين، وزوجتك في بيتك، أهذا يرضيك؟

- لا جدال في الأمر مولاي! أقسم بكتاب الله، وقضائه، وقدرته، على أن أعينك على كل خير.

- وماذا عن الشر يا قائدي الجديد!

- ليعيننا الله وإياك عن الشر طريقًا وغاية.

- ابتسم الخليفة ابتسامة خفيفة لم تكد تظهر أسنانه يا لك من خطيب!

- ولكن مولاي! لي رجاء إن سمحت لي؟

- لك ما تطلب، أنت الآن من المقربين.

- امهلني يومًا أعود إلى داري، وأخبر أهلي، وأعود بزوجتي.

- لك يومان، وفجر الثالث سأستدعيك أنا.

- وأنا رهن إشاراتك سيدي!

- فلترحل الآن يا أبا يوسف! وموعدنا قريب.

فنادى الإمام «يا حاجب!»

فدخل عبد أسود اللون، بثياب مزركشة، وعمامة، واصطحب «يوسف» إلى حصانه، ركب «يوسف» الحصان، وسار أمامه حصانان للحرس حتى باب زويلة المهيب، وما إن مر من خلاله توقف الحصانان، وتوقف الزمن بيوسف بين مشاهد للسجن بجوار الباب و بين ما عليه الآن أن يفعل.

تلك اللعبة اللطيفة التي بدأها تنقلب عليه، لا مجال للرحيل إلا العودة للوطن، ولكن هل يكون هناك وطن دون «إيرينا»؟

السلطة والمال قد يجلبان له الراحة، ولكن إن عاد إلى زمنه فهناك دولة ستفتك به قهرًا تحت عجلات حكوماتها.

انطلق صوب القطائع مجاوزها والعسكر حتى مشارف الفسطاط وإلى الحانوت، كانت الشمس لا تزال في كبد السماء، والسوق شبه خال، دلف للحانوت، وخلع عمامته، وهتف شاب صغير يجري،

«يوسف» حي، فترك الحاج «صالح» نار الكسر، واحتضن «يوسف».

- أهي العودة؟

- لا أدري يا أبي! «عادت الحياة لوجهه ففضح ما في باطنه من قلق».

فأغلقا الحانوت على عجل، وطارا إلى البيت على سرج الحصان، كما طارت الشائعات بقيام «يوسف» من بين الأموات، استنكرها الكل، كما يستنكرون كلام الإنجيل بقيامة عيسى بن مريم.

في البيت، الصحن كان صامتًا لا صوت سوى صوت عظام «إيرينا»، تئن في حضن «يوسف»، وصوت رضيع يبكي في خفوت كأنه يرحب بوالده، دلفا إلى غرفتهما، فأزالت عنه ردائه، واحتضنت جذعه العاري في لهفة، ثم توقفت فجأة، ونظرت في عينه:

- ما بك يا روح قلبي؟

ما أنهت جملتها حتى خانته دمعة من عينيه.

وبعدها انسحب قواه من جسده، فخر على ركبتيه على الأرض، وهو يحتضنها، وهو يخبئ وجهه في بطنها، ويبكي بغير صوت، نزلت بجواره وهي تتلمس لحيته، وتضمه إلى صدرها، وكررت «ما بك» عدة مرات، حتى حكى لها ما حدث؟ وعاد للتماسك.

كانت مذهولة، ووجهها كان خائفًا، وعيناها تدور، وكأنها في صحراء تبحث عن سراب ماء حتى حركت شفتيها اللتين جففهما الخوف:

- وماذا سنفعل؟

- ما رأيك؟

- أنا خائفة.

- وأنا لن أفعل إلا ما يطمئنك عزيزتي!

- سنرحل للقاهرة؟

- هل تجدين أنك إذا كنتِ زوجة قائد الحرس ستكونين في أمان؟

- أنا في أمان، أينما كنت بجوارك.

- قلت للوالي إنني سأحضر بعد يومين.

- مجددًا ستتركنا.

- أبيت أن أقبل حتى سمح لي بأن تكوني بجواري في قصر أبيه خدمًا لكِ، وكل ما لذ مما تشتهي نفسك.

- أواثق فيما ستفعل؟

- رأيت هذا أرجح ما يمكن فعله.

- وأنا معك حتى إذا بلغت روحي الحلقوم.

- وأنا لم أحب مثلك في الحياة ولن أحب.

- هل أخبرت خالي؟

- سأخبره، وسأعرض عليه أن يقيم معنا في القاهرة.

- سيكون هذا خيرًا.

- ليفعل الله بنا ما يشاء يا جميلتي!

* * *

احتضنها، وأزالا ما بقي من ملابس، وعادا داخل بعضهما بعضا يمتزجان، ويتموجان في فراشهم حتى الغداء، عند الغداء أيقظت «إيرينا» «يوسف»، فرآها وكأنما لم يرَها من قبل، الماء دائمًا ما يعطي الحياة، المرأة دائمًا تكون أجمل ما تكون بعد الاستحمام أو الجنس، فماء الرب يعطي لجسدها الحياة والنعومة، وماء زوجها يعطيها النضارة والسعادة، أيقظته برفق، وألبسته ثيابه، وخرجا للغداء.

وبعده قص «يوسف» ما حدث على الحاج «صالح» على الملأ، ولكنه رفض أن يرحل من هنا، وعارض رحيل «يوسف» خوفًا من الخطر، ولم تمر إلا ساعات حتى طرق الباب طرقة سريعة متعجلة جعلتهم يتلفتون إلى بعضهم البعض.

فقام العجوز صالح متمهلاً إلى الباب، وفتح شق منه، حتى وجد رجلاً من أهل البلدة، سألوا هل «يوسف» عاد حقا؟

فأجاب بالنفي، واتهمهم بالجنون، وأغلق الباب في وجوههم، وعاد متخبطًا إلى المقعد، ونظر إلى «يوسف»:

- أظن أنك عليك الرحيل الآن، فأهل الفسطاط علموا بقدومك، وإن ذاع الخبر سيكون هذا أخطر مما تصبو إليه فلترحل، وليكن الله معك أينما رحلت، قم، واسترح الآن يا ولدي! وليكن الله بفاعل بنا الخير.

عم الصمت على المجلس، الجميع بدأ يأكل ببطء قاتل، الأفكار التي تدور، ولا يستطيع أحد أن يجهر بها، دائمًا ما تميت الشعور

بالوقت، وباللذة، وبأي شيء، ظلوا يأكلون، إلى أي ساعة لا يهم، المهم أنهم صامتون وناظرون نحو الطعام الذي يمضغ ببطء.

انتهوا أخيرًا، وتوجه كل زوجين إلى غرفتهما، الجميع متخبط المشاعر، يخشى كل منهم ما يخشاه، ويأمل ما يأمله من الخير، عجيبة تلك الحياة دائمًا، تريد السلام وهي لا تزج بك إلا إلى الحرب، وإن كانت الحرب هي وسيلة السلام الوحيدة فهل يسمى هذا سلام؟

مر اليومان، و«يوسف» في حضن «إيرينا»، لا يفارقه كطفل يخاف الفطام.

قبل الفجر بدًا خفيفة تطرق الباب، قام «يوسف» متثاقلاً يفتح، كأنه يعلم الطارق، وخائفًا من نواياه، مثلما توقع، هو ذلك الذئب المميز، ولكن الظلام يخفي كثيرًا من بهائه، لم يدم الأمر سوى دقيقة:

- غدًا عند الفجر تكن عند مدرستك.

- وزوجتي؟

- الإمام قال لك ما طلبت.

- حسنا.

* * *

لم يلقِ السلام حتى، لقد رحل بتلك البساطة، ذاب في الظلام، عاد متثاقلاً من أفكار رأسه إلى الفراش، كانت «إيرينا» قد تيقظت خشية أن يرحل فجأة، كما أتى فجأة، حكى لها، وقالت إني معك على

ما يرشدنا الله إليه!

في الصباح خاطب الحاج «صالح» بالأمر، فرد أنه لا مفر من الرحيل، ولكن إن شاء ليرحل وحده هو وزوجته، أما هو فلن يبرح الفسطاط ما دام حيًا.

انقضت ساعات النهار، ويولج الليل، جهزوا حاجاتهم، وبللت ملابسهم دموع الحاج وزوجته، وانطلقوا مع أول خيط ضوء إلى المدرسة.

كان الحرس في الانتظار على مشارف الفسطاط، اصطحبوهم إلى المدرسة، خرجوا منها مع سطوع الشمس، كان يوسف على حصان، ربط في آخره جمل، على ظهره هودج بداخله «إيرينا» وطفلها، وأمامهم يمشي الحرس على شكل رأس سهم. كان المنظر مهيبًا جدًا، هو ليس بجديد على سكان القاهرة، فهذا ما يتم مع كل زيارة لوافد ذي شأن عظيم.

تقدموا بالسير حتى قلب حارة البرقية خلف القصر الشرقي الكبير، كان هناك بيت هادئ حوله أسوار مزينة بالورود، عبروا البوابة حتى صادفهم جندل من مياه جارية وبساتين، ثم باب البيت المهيب الذي يبدو كقصر صغير، وتراص الخدم صفًا واحدًا أمام الباب مرحبين بسيدهم الجديد.

كان الأمر لـ«إيرينا» يشبه حكايات شاعر الربابة الذي كانت تسترق السمع له من خلف جدران بيتها في القرية تشبه أحلامًا وحكايات الفتايات عن الأمراء والأميرات، كان واقعها الجميل يشبه

حلمها بالجنة.

ترجل «يوسف» من على جواده، فنادى منادٍ في الجميع أن حيوا القائد أبو يوسف الفارسي، فانحنى أمامه الجميع صفًا واحدًا ثم استقاموا، فنادى أن قبلوا الأيدي واحصلوا على بركة سيدكم وكرمه، فتحرك أولهم في حين أن أوقفه «يوسف» بيده بحزم، ونظر للمنادى، ففهم الآخر أن يصمت.

فتحرك «يوسف» ينزل جمل «إيرينا» بنفسه، وأخرجها من هودجها، كما يخرج اللؤلؤ من قلب المحار، كانت مشدوهة مسحورة العينين لا تكاد تفقه قولاً.

مرت أمام الخدم، فانحنى الجميع فاهتز جسدها النحيل محتضنة الطفل الرضيع مما فاجاءها، ولكنها لملمت شتات روحها في أن شد «يوسف» على يديها نحو الباب، فتحه الخدم، ومشى أمامهم امرأة غاية في الحسن، لا تخفي أكثر مما تظهر من جسدها، تمشي في رقة ونشاط حتى أدخلتهما إلى خلوتهما، وأغلقت الأبواب بعد أن قالت بلطف بليغ، وصوت أشبه بعزف الناي إنها عند الباب في حالة الحاجة وإن اسمها هو «ورد».

وضعت «إيرينا» «أحمد» على السرير الذي ضمه بنعومة، فانزلق جسده الضعيف بداخله، وكأن السرير يحتضنه، ووقفت تحتضن «يوسف» عند الشرفة التي تبدو منها الحدائق مبهجة جدًا تحت أشعة الشمس التي تعطي البهاء والنور للأزهار.

أخلعته عمامته، وضمته نحو السرير، تخشى ما تخشاه أن

تستيقظ الآن؛ لتجد نفسها في منزل الحاج «صالح» في دروب الفسطاط الضيقة.

هنا حتى ضوء الشمس مختلف، هواء القصر مختلف، الكافور له رائحة تبعث في نفسك البهجة، والياسمين الذي زين الشرفة والريحان يشعرك أنك في الجنة الآن.

الباب يطرق فأذن «يوسف» للطارق بالدخول، كانت «ورد»، تخبره أن هناك من ينتظر في البهو الكبير، وهو من عند الخليفة.

فقال «يوسف» أخبريه أني قادم على عجل.

قام من جوار «إيرينا»، ولبس عمامته، فقامت، وعدلت له عباءته وملابسه، وقالت عدني ألا تخونني حتى بعينك.

- والله لا أخونك حتى بخيالي.

- أحبك!

- أحب كل نفس يخرج مني في حبك، سأرحل؛ لأرى الزائر، ثم أعود، سأجعلهم يعدون الطعام لنا، قبلته فرطبت فمه، ورحل للضيف.

عبر ممرات البيت التي كانت تبدو معقدة بعض الشيء، فالممر الوحيد الذي استخدمه قبل هو ممر الباب في بيت الحاج «صالح»، أما الآن يشعر أنه كفأر في متاهة ذهبية، ولكنه يعلم أنه سيعتاد الأمر.

دخل إلى البهو، فوجد الوزير يعقوب بن كلس، الوزير الأول في البلاط الفاطمي للعزيز بالله، في كامل بهائه، ذلك الرجل القوي

الذي صادق الكافوريين، ووثق فيه العزيز بالله، كان يحمل بهاء سلطان، ولكن في رداء رجل عادي.

هنا تكمن سر مهابته أنه مثلك، ليس من أسرة ملكية، ولكنه يحمل قوة الملوك في البطش، الأقاويل تتناثر عنه هنا وهناك من بغداد إلى المغرب، عيناه كانتا كذئب ينتظر فريسته دومًا، وهكذا انقض على مقاليد الأمور في العصرين السابق والحالي في حكم مصر.

* * *

الفصل الثالث

حارة البرقية

بعد لقاء «يعقوب بن كلس» كان الأمر قد اختلط عليه قليلاً، هناك في الواقع دولة واحدة لها حاكمان، هذا ما رآه، وربما أكثر من حاكمين لا أحد يدري.

الخليفة في بهائه، وسلطانه، وحتى ذكائه الملحوظ لم يكن وحدهم من يحكمون الدولة، لا أتحدث هنا عن مصر بل عن الدولة الفاطمية كلها.

كان هناك ذئب عجوز يمسك بمقاليد الأمور هو الآخر يسمى يعقوب، ذلك اليهودي البغدادي الذي أعلن إسلامه، ومن حينها لم يفارق مناصب السلطة إلا قليلاً، مهما كان من يحكم أو دولة من تكون تلك، ولكن من يتبع الآن يعقوب أم الإمام؟

ظل يباشر العمل من أعلى باب زويلة؛ حيث السجن الذي دخله كيوسف، وخرج منه كأبي يوسف الفارسي، لم يهمل مدرسته بل زاد عدد المتدربين فيها، خمس سنوات من العمل فيها كانت كافية بأن يكون له عشرون قائدًا، وأسفل كل منهم مدرسة، هذا جيش كامل من المقاتلين، يشبه جيش أسطوري سري، لم يختبر بعد، جيش العقاب الكبير الذي خطط له هو والإمام.

أصبحوا هم حرس الإمام الخاص، وقوتهم لم تدرج داخل الجيش في مدينه العسكر.

هم جيش وحدهم لم يجربوا بعد إمام جيش منظم، ولكن هناك حربًا مع بني العباس على ملك الشام تلوح في الأفق.

كانت الدولة قوية، والأمر بخير، والأسواق تشعر ببعض الانتعاش حتى في قصر يوسف هدأت الأجواء بعد طرد كبيرة الجواري «ورد» التي كانت كما زعمت «إيرينا» تحاول الاستيلاء على قلب «يوسف» إلا أن «يوسف» هم بطرد «ورد»، والحق بها كل جواري القصر، لم يبقَ فيه إلا خادمة عجوز كانت تحبها «إيرينا»، وقام «يوسف» بتغير طاقم حراسته واستبدلهم بقادة من مدرسته.

وكذلك «عمر الطائر»، هذا الفتى الذي جلبه الحاج «صالح» إلى «يوسف»: كي يكون خادمه الأمين وكاتم أسراره، تجارة الحاج «صالح» ازدهرت جدًا بفعل وجود «يوسف» في الجيش.

وكذلك أصبح الحاج «صالح» كثير التردد على القاهرة، ولكنه لم يقبل أبدًا بترك الفسطاط كمسكن.

«أحمد» الآن يحاول أن يخطو أولى خطواته في تعلم القرآن والعلوم، هناك أساتذة يتواردون على القصر؛ لأجل هذا، كما يشرف أبوه على تدريبه البدني دومًا.

أعلم أنني اقتلعت من وقتكم الكثير لكن «يوسف» كان منشغلا قليلاً في سفره مع الحسن بن الهيثم إلى النوبة.

عادوا وفي باحة الجنة أو الحديقة التي يسميها «يوسف» الجنة

كان «يعقوب» جالسًا وعلى يمينه «يوسف» ويساره «الحسن بن الهيثم».

كان الأمر يدور حول فيضان ما، سيهلك النسل والزرع، كان يتحدث ابن الهيثم بعلمه حول خطورة الأمر وسرعة التحرك.

«يعقوب» كأنه لا يبالي، الفيضان يحدث كل عام، والخير يأتي بعده، والضرائب تزداد، لم نمنعه، ونمنع الخير.

كان «يوسف» صامتًا لا يعرف ماذا يقول؟ لقد رأى السد العالي حقا، ولكنه يعلم أن «الحسن» ليس ببانيه.

هنا خفق قلبه بقوة، تلك هي أول نقطة يشعر فيها أنه يتحدى الزمن.

بالتأكيد قد أجرى هذا الحوار من قبل، ولم يكن هو هنا حينها لم يبنِ السد، ولكن إن قال لهم إنه يرى أنه خير، وأقنع الإمام، وبنى السد، ماذا سيحدث حينها؟

هل ستدور الأرض عكس محورها أم أن هناك خطًا ما في المكان قد ينقلب ويخرجهم من ثقب ما أسود خارج حدود المجرة؛ لذلك لزم الصمت، أنا لم يكن من المفترض أن أكون هنا؛ لذلك لن أكون هنا.

أظهر انشغاله بحبات الفاكهة الطازجة، وإعداد الشراب للضيوف.

صمت الجميع بعد أن تعبوا من المجادلة.

لا علم «ابن الهيثم» يصل لـ«يعقوب»، ولا خزينه «يعقوب» وسيفه سيمنعان «ابن الهيثم» من التفكير في أمر كان قد عزم بعلمه عليه.

انفض المجلس، وعاد كل منهم إلى ملاذه.

«يعقوب» إلى قصره و«الحسن بن الهيثم» إلى قصر ضيافته، و«يوسف» إلى حضن «إيرينا».

كان يبدو شاردًا ومنهكًا جدًا، كطفل تائه في سوق من الألعاب، يشعر بداخله بمتعة؛ لأنها هناك، وخوف؛ لأنه تائه، ويقسمه التشتت بينهما نصفين متضادين في كل شيء.

- ما بك؟

- لا أعلم. ولم أفكر في هذا من قبل؟

- ما هذا؟

- يبدو أنني لم أنسَ أنني لست من هنا.

- ماذا حدث؟

- الحسن قال إنه سيبني سدًا ما على النيل و«يعقوب» يعارض.

- وما رأيك أنت؟

- أنا مرعوب من السد مما أنا فيه «إيرينا»!

- لا أفهمك «يوسف»! قل لي ماذا هناك؟

- السد لم يبنَ في الواقع حين كنت في زمني ماذا لو بنيته الآن؟ ماذا لو وافقت على من يبني؟ ما الذي سيحدث لي؟ ما الذي سيحدث لكِ؟ ما الذي سيحدث للكون؟

- لا شيء. هذا قدر، وأنت هنا، وغيرت أشياء عدة، ولم يحدث شيء.

- أنا لم أغير شيئًا.

- بلى. أنت الآن قائد الحرس، وقريبًا ستكون أمير الجيوش، بالتأكيد كان هناك واحد مكانك، وأنت الآن مكانه بعد أن أتيت هذا تغير على ما أظن.

- هذا تغير في حياة فرد، هل تعلمين كم شخص مات بسبب الفيضانات منذ ذلك الوقت وحتى بني السد؟ إنها أعداد كبيرة وضخمة إن جمعتها على مر أكثر من تسعمائة عام كلهم سيكونون بخير، ومن المفترض أنهم سيكبرون، ويتزوجون، وينجبون. لو كانوا مائة فرد فقط تزاوجوا طوال التسعمائة عام، أظن أن عددهم ربما يصل لمليون فرد، هذا لو مائة فقط، فقط مئة سينتجون مليون فرد يشاركنا في الطعام، والهواء، والأرض، أظن أنه أمر مدمر حقا إن حدث.

- ولكنهم سيموتون.

- ما الذى سيميتهم؟ الفيضان لن يأتي ثانية عليهم، كيف سينتهون؟

- هذا قدرهم. وإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة.

- ولكن بالتأكيد تصرفاتنا تؤثر على كل شيء، هكذا قرأت وتعلمت.

- لن تؤثر أنت على قدر الله بأن يقبض روح أحدهم أو يبقيه.

- ونعم بالله. ولكني قلق وحائر.

- أين ترى الصلاح في قلبك في أي قرار؟

- أرى الصلاح في السد، ولكن ماذا لو تغير شيء؟ هل سيبقى الوضع على ما هو عليه؟

- الصلاح هو الصلاح أفعله، وأترك الأمر لمن في يده الأمر جميعًا.

- ليكن الأمر لله! ولتكن مشيئته على الأرض كما في السماء! غدًا سنتحدث جميعًا مع الإمام، وغدًا لناظره قريب.

- هل تريح هذا العقل الذي أثقله العمل، وأبعده عني؟

- ما ينبغي لروح أن تترك جسدها إلا عند الموت، وما دمت حيا لا أستطيع أن أبتعد.

- ما زلت أحبك كما أحببتك أول مرة، لم يمضِ العجز على مشاعري كما رأيته اليوم في بعض خصال شعري، هل ما زلت تحبني أنت؟

- ما زلت أعشقك كما تعشق الأرض الشمس، فلا حياة لها إلا بها، ولكني بعد عام، أو اثنين، أو أكثر لن أكون كما أنا، سيأكل الشيب شبابي، سأكون كما يكون العجزة، ويذبل لوني ويبيض شعري، وجسدي سينحني.

- سأكون بجوارك حتى آخر دفعة هواء في صدري، سأظل أحبك بآخر قطرة دم في قلبي.

- احضني، ولا تتركني أبدًا، ضمني إليك فادخلني في صدرك.

* * *

كان الخوف يسيطر على «يوسف» جدًا، احتضنها، وناما تلك الليلة بعد التعب الجميل والإرهاق الذي يستلذه كل البشر، ولكن الخوف كان باديا على عين «يوسف»، كان يخشى من تغيير وجه الأرض، والآن يخشى من تغير وجه الحياة، تناسى بأن الرحيل لا مفر منه، وإن كان لا يشيب فهناك من يموت هنا.

انتهت كل أفكاره في دوامة النوم العميقة؛ حيث رقد عقله في سلام أخيرًا بعد هذا اليوم الطويل.

* * *

في الصباح الباكر كان خادمه الأمين يصحبه دون حراسة عبر ممرات القاهرة إلى القصر الشرقي الكبير،

وفي البهو كان الإمام، و«يعقوب» و «الحسن» يتحدثان، فأشار له الإمام أن يتقدم، انضم، وكان كما يبدو الحديث لم يكن قد احتدم في خضمه، بعد التحيات و العبارات المعتادة في جلسات الملوك تلك، دخل «ابن الهيثم» في الموضوع مهددًا بفيضان جامح خلال عام، وضرورة بناء سد كبير وحفر بحيرة كبيرة.

لم يخلُ كلامه من كلمة صعب جدًا، وأن الإمكانيات الهندسية يجب أن تكون عالية،

علق يعقوب على خوفه على الخزينة، ونقص الأراضي المزروعة؛ لأن الفيضان لن يأتي، لم يقدم أي دليل علمي واحد.

كان «يوسف» و «الإمام» ينصتان إلى مبارزة «يعقوب» و«الحسن» في اهتمام، لم يشاركا، وفجأة أخرج يعقوب آخر أوراقه، فعلق: «وما

رأيك يا إمامنا الكريم؟».

ساد الصمت الجلسة للحظة، ربما يصدر الحكم الآن، سأل الإمام يوسف، فأجاب أنه يرى في رأي «ابن الهيثم»، الرأي الرشيد، والأخذ بالأسباب، كما أمرنا الله !

الإمام شأنه شأن الملوك، لن يرى إلا خزينته، ونفره، وجيشه، أما الموت، والزرع، والناس، هذه أمور ثانوية نتحدث عنها بعد غلق خزيتنا جيدًا.

تحدث الإمام:

- أرى أن كلفته عظيمة، ونتاجه في زمن الغيب، نحن في حاجة للأموال، وأن ننفق على خير ذي نفع عاجل، يمكننا أن نؤجل هذا عامًا أو عامين، والعامة هنا معتادون على الفيضان ونخفف عنهم ضرائبهم حينها، وحل الأمر.

* * *

كاد «ابن الهيثم» يقاطعه مرارًا، فقد حرك يديه عدة مرات، وأشارت علامات وجهه لهذا إلا أنه لم يفعل.

بعد انتهاء حديث الملك استأذن في الرحيل؛ لشعوره ببعض التعب، وقد غادر القاهرة إلى العراق مباشرة في نفس اليوم.

هل ما يحدث يحدث دائمًا؟

هذا ما حدث به «يوسف» نفسه.

إن كنا نحن أو لا نحن في هذا العالم وذات الوقت هو نفس

المصير، نقضي اليوم وعدة أيام بلا أحداث كبرى، غير أن «يوسف» سمح بإقامة حفلات شعرية من وقت لآخر في قصره، كان أغلب جمهورها من تلاميذه الأوفياء.

في حين توطدت صداقة أحمد بن أبي يوسف الفارسي مع الأمير المنصور بن الإمام العزيز بالله، وصارا متلازمين في دروس الفلسفة، والدين، والسلاح، هم الآن في التاسعة، وقد اشتد العود منهم.

مرت الأيام كما تمر عادة هنا بلا أي أحداث تذكر سوى ذلك المبنى المتواضع في حديقة قصر يوسف الذي أصبح يحمل اسم «نادي العقاب».

فيتجمع فيه التلاميذ وتلاميذ التلاميذ.

الأمر يشبه شجرة عائلة جديدة تتكون هنا.

كل هذا حتى أتى الفيضان، لم يكن الفيضان إعصارًا كما حاول «ابن الهيثم» توضيح الأمر، لكنه كان كافيًا لمحو إحدى عشرة قرية بلا نجاة واحد، وهلك الزرع، والنسل والبهائم، في باقي شريط النيل، حتى أرض الفسطاط لم تسلم، أغرقتها المياه هي الأخرى.

الصلوات كانت تتلى في الشوارع، والدعاء كان يسمع من خارج كل قرية، ما هي إلا أيام، وفقد الناس طعامهم، الأسواق شبه خالية من الزروع، وما هو موجود من لحم وبقايا زرع تضاعف ثمنه أضعافًا، وكل ساعة يزيد ضعفًا.

بعض المناوشات في المدن خارج القاهرة، فينزل العسكر لحلها.

الإمام يرسل الاستغاثات إلى البلدان القريبة، كل هذا وما زالت

القاهرة بخير.

«يوسف» والحاج «صالح» يتفقان على شحنة طعام من مال «يوسف» توزع على الفسطاط، ولا تزال القاهرة بخير.

يأكل الناس الشجر والحجر، ولا تزال القاهرة بخير بقوة السلاح.

حوصرت أبواب القاهرة بالجائعين من كل صوب، تعالت حناجرهم بالهتاف، يهلك بعضهم جوعًا، ويدفن ملاصقا للأسوار أو تؤكل جيفهم من شدة الجوع، الناس لن ترحل، إلى أين ترحل بالأساس؟ لا مكان لا طعام، إن كنت ميتًا لا محالة سأموت، وأنا أحاول أن أحيا.

استنفار في الجند، و«يوسف» يأمر بألا يقتل أحد، لا تطلقوا سهمًا واحدًا، ولكن في القصر كان «يعقوب» يدس السم في آذان الإمام: «ما داموا أمواتًا جوعا، فلماذا لا نخلصهم من عذابهم وحينها سيكفي الطعام الباقين؟».

أمر الإمام باجتماع عاجل وطرح فيه مطلبه، يقتل كل من صرخ خارج السور، كان رأي يوسف أنه لا بد من تزويدهم بالطعام من القاهرة حتى تأتي معونات الخارج إلا أنه كان أمرًا مفعولا.

فرفض «يوسف»، وتركهم في البهو، ورحل وسط تهديدات بعزله.

عاد إلى البيت، وكان قادته في النادي، فاطلع عليهم الأمر، وأعلمهم بالرحيل فجرًا إلى الفسطاط، لم يفكر فيهم أحد هتفوا بالسمع والطاعة، ورحلوا من النادي على لقاء عند بوابة زويلة مساءً.

صعد إلى «إيرينا» يخبرها، وأخذ «أحمد» والخادمة، رتبوا

الأشياء، وأخذوا مالهم، وحتى الطعام، وغادروا صوب الباب مساءً، كان «يوسف» يريد القفز من السور، إلا أن أحد قواده نصحهم بأن يلتفوا حتى الباب المحروقي، فينزلون إلى المقطم، ثم إلى المدرسة، وهناك يروا ما يفعلوا، فانصاع يوسف للنصيحة، التفوا من فوق السور، كان العامة يحتلون الأبواب إلا باب المحروقي، وحين سأل «يوسف» حرس الباب عللوا بأن حيوانًا ما من الجبل قتل اثنين ليلة أمس، ففر الناس من هنا.

خرج «يوسف» من الباب، وما إن لبثوا في صعود الجبل بمشاعلهم كانوا كنجمة في بحر من الظلمات، نادى «يوسف» فيهم على رجل يدعى «غانم»، هو أعلمهم بدروب الجبل فهو من أهله، فتابعوا السير دون توقف حتى المدرسة.

فتح له الحرس الباب، أدخل النساء والأنعام إلى الباحة، وأوجد للنساء غرفة حتى الصباح، وظل هو ومعاونوه في الباحة ساهرين حول نار ما أوقدوها، فيما نام الجنود الباقون حولهم، ظلوا في نقاش حول ما يريد الملك، كان بعضهم مع قتل الناس التي تهدد الأسوار، فهم هنا لحماية القاهرة، وأن الإمام أمره من أمر الله.

كان «يوسف» صامتًا، وتلمع عيناه من انعكاس اللهب حين احتدم النقاش بين القادة، حينها وقف فجأة، وهتف فيهم أن يصمتوا فسكت المتحدث وفزع النائم، أخذ مشعلا، وسار وسط الجنود حتى أولهم، فوقف الجميع وسط الظلام على الفور، فهتف فيهم:

«يا جند الله! كل نفس بما كسبت رهينة! فخيرها خير وشرها شر! لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى والصلاح، الليلة نحن هنا؛ حيث

رأيتكم أولادًا، وربيتكم على يدي حتى صرتم جيشًا يخشاه الناس، أمرني الإمام أن أقتل العامة هؤلاء الجوعى حول السور، وأنا والله لن أسل نصلي هذا إلا في مرضاة الله وما ينفع الناس، أشهدكم أمام الله أني عزلت نفسي من إمارة الجيوش، من أراد منكم أن يعود فليعد، ومن أراد معيتي فأخ كريم، ورفيق درب إلى ما يهدينا الله له! لا أريد منكم إلا أن تخيروا ضمائركم، وانظروا في الصباح ما أنتم فاعلين».

سكت يوسف فجأة، ولكن الهمهمات تعالت من بين الصفوف، ترك الباحة إلى غرفته القديمة حيث جلس، وقد تبعه «أحمد» للداخل دون أن يعلق بكلمة، نام «أحمد» من الإرهاق وتبعه «يوسف».

مع أول خيوط الضوء كان العدد أقل من البارحة، لكن ليس بكثير، بعض الجنود عادوا على ما يبدو.

أمر يوسف بغلق أبواب المدرسة وتشديد الحراسة، وخرج وحيدا بملابس عادية صوب الفسطاط، التقى بالحاج «صالح»، وحكى له ما حدث، وقص عليه الحاج أحوال المدينة السيئة أيضًا، فأخرج «يوسف» كيسين من دنانير الذهب، وأعطاهما للحاج على أن ينفقهم على إطعام الناس، رحل «يوسف» إلى «دبجن» مباشرًا، وقص عليه من القصص ما حدث حتى تلك اللحظة، كان «دبجن» يهز رأسه، ولا يعلق حتى انتهى «يوسف»، فرد عليه «انظر ما ترى نحن ملك يمينك».

طلب منه «يوسف» اصطحابه معه إلى المدرسة للتشاور، فوافق على الفور، وحين عادوا كان الغروب قد بدا شمسًا حمراء في طرف السماء، تشبه لون الدم الذي تناثرت أخبار في المدرسة بأن «يعقوب» قد أراقه من دم من كانوا عند باب سعادة، فأرسل «يوسف» «غانم»؛

لكي يأتي بالخبر اليقين، فعاد ليلاً منكس الرأس على ما رأى.

داخل الغرفة كانوا خمسة رجال من القادة، و«يوسف»، و«دبجن»، اتفقوا على أن يقاتلوا لأجل الشعب، ولكن كيف؟

الأسوار عالية، و الجميع قد عرف متمرده، لن يسمح لك الحرس بالولوج للداخل مرة أخرى، كان الصمت يعم المكان بينما هرع «يوسف» يرسم القاهرة بأسوارها، وبروجها من مخيلته، وحين انتهى هتف «دبجن»: «القرود».

فالتفت له الجميع على أنه يهزي من الجوع، ولكن أشار له «يوسف» أن يكمل، فتابع «لدينا خمسة عشر قردًا في القرية، كنا نستخدمهم لضبط الأمن، فهم أسرع في حركتهم، ويمكنهم تسلق أي شيء. ولكني أظن أننا سنحتاج المزيد».

قاطعه يوسف:

- هذا ما كان ينقص ذهني، إليكم خطتي المبدئية.

الكلام الذي قيل لم أسمعه، ولكني سأقص عليكم ما حدث في بزوغ الفجر الثالث تزامنًا مع ازدياد أعداد الناس على البوابات الغربية بعد قتل العامة بباب سعادة، قرر «يعقوب» محوهم، فجمع أغلب الحرس على الباب استعدادًا للقتل.

كان «دبجن» قد أحضر القرود وخمسة أشخاص من قريته إلى المدرسة، وتحرك الجميع على مقربة من الباب، تم تحرير القرود التي قفزت على السور، ودخل البوابة التي لم تكن مفتوحة بالكامل، وقاموا بإلهاء الحرس حتى تمكن أتباع يوسف من قنص الحرس بالأسهم.

تقدمت الفرقة التي كانت تسير بسرعة فوق خيولها، وأمامهم تجري القرود محدثين سحابة من الغبار، وكأنها عاصفة تتحرك في حارة المحروقية إلى القصر الشرقي الكبير، تخلصوا من حراس الأبواب، وولجوا سريعًا إلى البهو، حيث اشتبكوا مع الحراس، وتم محاصرتهم بأعداد كبيرة، فأمرهم «يوسف» بوقف القتال.

كان الأمر يشبه استسلام غريب، جماعة من أهل العقاب، وتحيطهم دوائر متتابعة من جند حرس الإمام، الذين أغلبهم من تلاميذ سابقين لـ«يوسف»، مواجهة عادلة قد تنتهي بفناء الفريقين دون فوز، نزل الإمام مطالبهم بإلقاء السلاح، حينها سرت همهمات بين الصفوف أنه انتحار، هتف «يوسف» في الجميع أن يلقوا بسلاحهم ولا يخشوا شيئًا، استسلم الجميع للأمر، وما لهم من خيار آخر ليفعلوا.

نزل الإمام درجات حتى توسط الدرج على تلك الرقعة الواسعة فيه ومن حوله أربعة رجال، تصدرهم، ووجه إلى يوسف كلماته: «لقد أتيت لنا مقتولاً فأحييناك، وأنزلناك خير منزلاً ومقامًا، فانظر ما صنعت، تعصي الإله وتعصيني؟»

تقدم «يوسف» خطوة عن الجميع، ولكن ما زال حوله حلقات من الحرس: «والله ما صنعت إلا ما أمرني الله به، لقد قتلت يا سيدي نفسًا حرم الله إلا بالحق، وأنا هنا لأقتص منك دماءهم».

ضحك «العزيز بالله» ضحكات ساخرة، نفسك الآن بيدي.

لم يستطع أن يكمل جملته، كان صوتًا كصوت الرعد، يملأ البهو

والقصر، وكان رأس الإمام قد ثقب، وخرج منه الدم كنافورة صغيرة وسلاح، ما يبدو غريب على الحرس يخرج من مقدمته دخان خفيف، ثبت الجميع مكانه إلا واحد من حرس الإمام جرى على «يوسف»، فصدى الصوت جاء، وأرداه قتيلا بجوار إمامه.

لم يعرف الحرس ماذا يفعلون؟ الوجوه قد أقفرت، وتغير لونها، لو سألتهم لقالوا هذا سحر مستمر، تناول أتباع «يوسف» سلاحهم، وفتح لهم الطريق إلى خارج القصر، ومعهم جسمان الإمام، تحركوا به في القاهرة حتى باب سعادة، أوقفوا المعارك، وقبضوا على «يعقوب»، وجمعوا الناس للصلاة في جامع القاهرة الكبير، كبر عدد أتباعه فجأة، كل من كان ضده حين البهو يمكنه أن يخر له ساجدًا الآن، الناس هنا تعبد القوي، هذا الإله الذي يعرفون، كانت أخبار صوت الرعد تتردد في المدينة كنار تأكل في حشائش جافة، لو قال أحدهم الآن إنه إله لعبد من فوره، رجل يقتل بصوت غريب آت من السماء، حشر الناس تدافعًا داخل مسجد القاهرة العملاق بجوانبه الأربعة، وبين كل عدد من الصفوف وقف حارس كمبلغ لما يقال، اكتظ خارج المسجد بالناس أيضًا، بينما رقدت جثة الإمام على باب المسجد، فرآها كل عابر.

وقف يوسف على المنبر، وبعد البسملة، والصلاة، والسلام على رسول الله بدأ:

«يا أيها الناس! إمامكم هذا قد أمر بقتل الجوعى، وقد رفضت ما أمر، وخرجت عليه، ولكن حين قتل الناس بالفعل عند باب سعادة، أتينا وقد أدينا فيه حد الله بيد الله في الأرض، إن كان لكم مما أقول

بد أو رأي غير رأيي فليتقدم صاحبه».

سارت الهمهمات في الصفوف، فعادها فسكت الناس جميعًا، حتى قام أحد من المنتصف، وهتف «عاش يد الله أبي يوسف»، كررها مرتين حتى رددها الناس من خلفه.

خرج يوسف بين الناس الذين كانوا يفسحون الصفوف من خشيته حتى الباب، ونظر للجثمان الراقد، وأمر بإكرام مثواه، و من خلفه حرسه راكبين ومترجلين، شقوا قلب القاهرة إلى القصر الشرقي الكبير.

فور دخول القصر أمر بأن لا يمس أحد من أهله في شيء،ونادى في الحرس أن يجمعوا له الأعيان من المدينة.

لم يدم الانتظار طويلاً، وكذلك لا تنتظر الأخبار، فور توقف القتال بباب سعادة علم بعدها المحتجون بما حدث بطريقة ما من أحد الحرس، وبدأت الأخبار تطير في كل مكان من الجهات الأربعة حتى وصل الفسطاط.

دخل الأعيان على «يوسف» في القصر، فهب واقفًا استقبلهم وأجلسهم، بدأ حديثة بأنه لا يرغب في الملك، ولا يرد أن يظل هنا طويلا،هو فقط أتى؛ كي يطعم الجوعى في البلاد.

أعلم الأعيان بأن الحرس سوف يفتشون تحت كل حجر في المدينة عن طعام، وما يجدونه سيأخذون نصفه، ومن يرفض فقد عصى أمر الله، وينفذ فيه حكم مانع الذكاة، لم ينطق أحدهم، وكيف ينطق من يشعر دومًا أن السيف قريب من حافة عنقه!!

كان الجنود يمشطون القاهرة بقصورها وبيوتها، لم يتركوا فيها إلا نصف ما وجدوا، ثم خرجت حملة توزع الطعام على الناس في الأنحاء القريبة، وحين الفسطاط أمسك الحاج «صالح» بسراج فارس منهم، كاد الفارس أن يقتله من المفاجأة، ولكنه لكبر سنه صبر عليه، سأله:

- أ أبو يوسف الفارسي حي هناك؟

- يد الله أبى يوسف الإمام الأعظم الآن، يا رجل!

برقت عين الحاج «صالح»، وعاد فارا إلى بيته، لا يعلم لما دب الخوف في أوصاله، لا يعلم كيف يخبر «فاطمة».

حالة من الرضى بين الجوعى سادت، إن لم يشبعهم الطعام أشبعهم موت من أصابهم بالجوع، أشبعهم محاولة الإمام الجديد إرضائهم، نفذ حكم الإعدام في «يعقوب» في قلب سوق سعادة، المشهد سبب هلعًا في القاهرة، أشعر الأعيان والأمراء أنه لا أمان ما هنا، لقد أعدم الإمام الجديد الوزير القوي، أعدم بكل سهولة، يعقوب رغم كل أتباعه.

سادت حالة من الهدوء والترقب في القاهرة، وبعد يومين وصلت المعونات من ذهب، وفضة، وحبوب من شمال أفريقيا، حينها علم «يوسف» لما تصرف «يعقوب» هكذا، إذا كان الجوعى أموات فإلى من تصب تلك الغنائم؟

أرسل «يوسف» اثنين من قاداته إلى مدينة الرب في مهمة عاجلة، وهي جلب عالمين أو أكثر من مكتبتها من أجل مساعدته

في شؤون الدولة، كوّن مجلس للحكم، مكونًا منه هو، واثنين من رجاله، وخمسة أمراء يمثلون سكان حارات القاهرة الخمس الكبرى، وضم لهم المنصور بن المعز لدين الله الإمام المقتول في خطوة لم يفهمها أحدهم، ولم يرد هو أن يعقب على الأمر.

كان دور المجلس هو رعاية الدولة حتى بلوغ المنصور سن القيادة فيعيد له ملك أبيه وأجداده، ولم ينتقل من قصره الصغير.

توسع على مدار عامين في حفر الترع، وإقامة السدود، وتوسيع الرقعة المسكونة غربًا نحو الصحراء القاحلة تلك.

وبعد إحدى جلسات المجلس الحاكم حينها انفرد في قصره مع «أرخميدس» أحد العلماء الذين جلبهم من الإسكندرية، حينها سأله «أرخميدس»:

- كم عمرك يا أمير؟

- كم تعطيني من العمر؟

- حسب مظهرك عشرون عامًا لا أكثر.

- حتى أنني لم ألحظ نبوت لحيتك خلال تلك الفترة هنا.

أنهى يوسف اللقاء بعد التملص من السؤال، وحدث «إيرينا» بما جرى وسط مخاوفه بملاحظة العامة ذلك، فأشارت عليه بأن يرسل من يتلصص ليعلم، كان منقطعًا عن الشعب، فهناك من يهتم بأمرهم ومطالبهم، وكان يصب تركيزه على التنمية، لكن حين عاد البصاص صعق «يوسف»، فالناس يتحدثون عنه بأنه ولي أو ملك من السماء.

لم ينسوا قصه صوت السماء الذي يقتل في لمح البصر، بل نسجوا حولها معجزات أخرى لم تحدث، قال إنه مخلد لم يكبر، ولم يرَ أحدهم عليه علامات الكبر يومًا.

وجد نفسه في مأزق،أخرجه منه أحد الأفلام الأجنبية ثانيًا، دائمًا تفلح تلك الأفلام في كل مرة يستخدمها فيها، عهد إلى الحاج صالح أن يصنع له قناعًا من فضة؛ ليرتديه بعد أن حدثه في الأمر.

ورأى الحاج «صالح» أن هذا رأي الصواب، وصنعه في أسبوع تقريبًا.

الحاج كأنه أيقن أن المأزق لا خلاص منه، «يوسف» الآن الإمام وإما أن يخلد فيها أو يقتل، إن قتل هذا هو مصير ولاة مصر.

وفي اليوم السابع كان الحاج «صالح» وزوجته في القاهرة يسلمون القناع لـ«يوسف» الذي اعتزل في قصره أسبوعًا كاملاً حتى انتشرت شائعة مرضه.

بدا الحاج «صالح» منهكًا، كان يلهث من صعود الدرج.

في غرفته التي أعدها الخدم لهم، طلب من «فاطمة» أن ترسل «يوسف»، وأن تخرج هي، وقد حدث، دخل «يوسف» عليه في كامل بهائه الملكي:

- تعالَ بجواري يا بني!

- ها أنا يا والدي!

- صاحب السر يطلب سره، وما بقي من الوفاء إلا القليل، وأنت أيضًا لي سر عندك، شيء ما في نفسي تركته لكم، ولكن ما عاد

للكتمان ثمن، أريد أن يرتاح قلبي قبل أن يرتاح جسدي.

- أعلم ما تصبو إليه.

- إذًا احك لي ما تكتم.

- أنا لست من أهل فارس.

- أعلم، فأنا من أهلها، وأنت ليس فيك خصالنا.

- أنا من مصر ولكن ليست مصركم.

- ولدي! أنا ذاهب إلى رب كريم، استفض ولا تخف، سيدفن كل شيء معي.

- أطال الله عمرك! أنا فقط لم أرَ خيرًا في أخبارك منذ البداية، أتيت من مستقبلكم عبر سحر غريب، يمكن أن تقول إني من أحفاد أحفادكم، أتيت من بعد ألف عام منكم.

- تغيرت ملامح الشيخ للخوف، ماذا تقصد بسحر عجيب؟ ألست بشرًا مثلنا؟

- لا تخف، أنا مثلكم، ولكني نقلت من هناك بطريقة لا أفهمها، وجدت «إيرينا» في مأزق بين موت أهلها وزواجها من رجل هي تكرهه، فأخذتها على أن أحميها تعود لك، وأعود أنا، ولكن العشق قد أذاب قلبي، ولم أعد بإمكاني الرحيل.

- وما دمت مثلنا لمَ لا تكبر؟ أو تشيب؟ ولم هذا القناع؟

- لا أفهم هذا أيضًا، ولكن «دبجن» الجيبتي قال لي إن هناك نبوءة بعودتي إلى هنا، وانني لن أشيب، ولن أموت ما دمت هنا.

- إذًا سحر الجبتيين ومكرهم من جلبك.

- لا. هم لم يجلبوني، وجدوني مثلما وجدتهم، ولكن قالوا إنني مذكور لديهم.

- أنت المهدي كما يشيع الناس؟

- أنا المهدي المنتظر الخطأ، الناس ينتظرونه، ولكني أتيت فولوني مكانه، وما أنا بمهدي، صوت الرعد ما هو إلا سلاح من صنعنا نتقاتل به لدينا وليس به أي أمر عجيب، عدم شيبي لا أعلمه، لذلك صنعت القناع حتى أشيع أنني مريض، وأرتديه بين الناس، ربما قصة مرضي تغنيهم عن قصة المهدي.

- «إيرينا» و «فاطمة» بين يديك يا ولدي! لا ترحل حتى يرحلوا، وأحسن لي كما أحسنت إليك،

- ستفيق سيدي! وستكون أنت حاميهم.

أطلق الحاج صالح الشهادة بصوت مستكين، وأغمض عينيه، وذهب حيث تذهب الأرواح بعد فيضها.

* * *

في جنازته كان يوسف يرتدي القناع، شيعت من جامع القاهرة إلى الفسطاط، وصلوا عليه هناك ثانيًا، ودفن حيث يرقد آباؤه.

* * *

في القصر كانت «فاطمة» تصارع الحزن بروحها حتى طرحت في الفراش، والثبات يبدو على «إيرينا»، ثباتًا لم يكن كثبات القوة،

بل كثبات ثمرة احترق من حولها البستان كله، فلا هي سقطت في النار ولا نجا جذعها من اللهب.

الشيخوخة كانت تنتظر فرصة؛ لتزحف على وجهها، وها قد أتت الفرصة، ولم يرحل الحزن من القصر قبل «فاطمة»، وكأنها اشتاقت لجوار زوجها فرحلت له بعد أيام، القصر كان كئيبًا و«إيرينا» فارقتها البسمة، تعلم أن الموت حق ولكن الوجع ليس بيد أحد.

يوسف بجوارها ولكنها تخشى عليه وعلى ابنها من الحكم، تود أن تهرب من جديد ولكن إلى أين؟ لا هي بطاقة للهرب ولا «يوسف» عاد يوسف الذي يجري في الصحراء، في إحدى الليالي عاد «يوسف» من مجلسه مرتديًا قناعه الذي اعتادت الناس عليه، صدق بعضهم قصة مرض وجهه، وأما الباقون ظلوا متمسكين بأنه يريد أن يحجب نوره الإلهي عنهم، الناس حقًا تعبد القوة، وتفتن بالحكايات التي تنسجها، ربما يكون الآن أكثر أمانًا به، هو أول من أطلق الشائعة.

خلع قناعه بالغرفة، وكان الجو خانقًا من الحر في القاهرة، توجه إلى شرفته، وتبعته «إيرينا»، وضعت يداها على كتفه؛ لتخفف عنه عناء ما به، جلست بجواره بعد أن نزعت عنه عباءته، وقميصه، وبقي عاري الصدر، تحسست صدره، ووضعت رأسها عليه:

- أتريد الرحيل؟

- إلى أين؟

- نهرب من كل هذا، ونربي «أحمد» في مكان ما أكثر أمانًا.

- هل يوجد مركز أكثر أمنًا من أن يكون قائد جيوش؟

- وهل حين قتل الخليفة لم يكن قائد جيش؟ و حين حدث كل هذا لم يكن هناك جيش؟ أنا أخشى عليك وعليه، لم يعد قلبي يطمئن في جوف الليل حين أنام أو في الصباح حين أنتظرك لتعود كي أطمئن.

- لا تخافي حبيبتي! نحن بجوارك إلى الأبد.

- أكره كل هذا، هذا القصر الكبير، وذلك الحمل الذي يزاحمني في صدرك.

- لا أحد يزاحمك في قلبي.

- بلى. كل هذا يأخذ من عقلك وعقلي، أخشى على «أحمد» من لعبة الموت هذه، ما يدريني؟ لعل سهمًا هنا أو هناك يقتله بحجة إعادة الحكم للفاطميين.

- الفاطميون معنا، ولن أهرب مجددًا، تعبت من الهرب، هربت معك في البداية كي تكوني بخير، وهربت من الموت في السوق بأن أدخل لعبة الحرب تلك، وهربت من موت الناس بأن أقتل الخليفة، وهربت من سطوة الحكم بأن أضع مجلسًا، كفاني هربًا خلف حلم لم أحلمه قط.

أنت حلمي، وكل ما أصبو، سنعيش هنا، وبعد سنوات سنرتاح من عناء الحكم، ونبقى في النعيم بقية حياتنا، سأبني لك قصرًا على رأس جزيرة الروضة، ونعيش هناك وحدنا بلا خدم أو جنود، ربما نصنع غرفة لـ«أحمد»، ونزوجه فقط لا أكثر.

- أحبك يوسف! ولكن عدني بألا يصيب ابني شيء من هذا.

- ابنكِ سيكون بأمان.

عامان كانوا كافيين لأجل أن يجهز الفاطميون، القاطنون في شمال أفريقيا أنفسهم، ويجمعون شتات ولايتهم المتناثرة؛ لغزو القاهرة مجددًا.

الأخبار طارت للقصر، واجتمع المجلس، وتعاهدوا على حماية القاهرة.

أرسل يوسف أميرين منهم؛ ليقوموا بحل المسالة هناك، ولكن يبدو أنه لا أمل، والجيش يقترب، بدأ في قطع حدود برقة الآن، هو على مشارف صحراء مصر الكبرى، أرسل «يوسف» بقيادة «أحمد» ابنه حامية للفيوم على أن يلحق بهم الجيش،و بدأ فى إعداد نفسه للعودة، ولكن «إيرينا» وضعت حياتها أمام عودة ولدها، وأصرت على السفر مع الجيش؛ لتعود بولدها من هناك.

الموقف كان حرجًا جدًا أمام قادة القاهرة، ولكن من يستطيع أن يمنع أمًا من أن تخاف على حياة ولدها؟

وصل الجيش، وعاد أحمد، ومساعده المنصور بن المعز لدين الله مع «إيرينا»، استقر الجيش ثلاثة أيام، منتظر ظهور جيش الفاطميين في الأفق، وحين ظهر طالب أميرهم مقابلة «يوسف»، فخرج عليه «يوسف» بقناعه الفضي الذي كانت أشعة الشمس تعكس ضوءه على من أمامه، فتغشى عينه، سخر الأمير من قناع يوسف فقال:

- أتخشى من أن نرى الرعب على وجهك من جيشنا؟

- بلى. إن بي مرضًا، أدعو الله أن يعافيك منه.

- سلم لنا القاهرة تسلم من كل ما حدث.

- القاهرة لها حاكم، وهو المنصور بن المعز لدين الله رحمه الله!

- نعم نعم. رحمه الله الذي قتلته بيدك، نحن قوم لا نصدق في نبوءتك، ولا في سحرك الذي سحرت، وإنى قاتلك اليوم بيدي.

- ما نحن إلا حراس على العرش حتى يكبر الأمير، ونسلم له الملك.

- وحين يكبر تقتلونه، وما يدريني أنك لم تقتله بالأساس؟

- لو قتلته لأخبرك الذي أخبرك بقتل أبيه.

- ترفض الاستسلام لنا ولشرع الله.

- شرع الله ينصر الحق، ويبرأ من المعتدين، وأنتم أتيتم كل تلك المسافة في الصحراء لتعدتوا، لا طاقة لكم اليوم بنا، ولا نريد أن نفرغ عليكم من لدنا قوة.

- لو لم يكن لي شرف من الإسلام لقتلتك الآن أمام رجالك ولكن لن تنجو مني في المعركة أعدك.

- كان يجب أن نصل لاتفاق ولكن كما شئت كل الدماء التي ستراق هي لك.

التف كل منهم؛ ليعود إلى جيشه، أمر «يوسف» جيشه بالثبات، وأن لا يبدأوا الهجوم إلا أن يعتدوا، كانت هي ساعات قليلة حتى قنع الفاطميون أنه لا طاقة لهم اليوم بـ«يوسف» و«جنوده»، سلاحهم غريب وأسهمهم تنفجر.

يد الله بن يوسف يهتف الميدان باسمه كان جيش الفاطميين ينسحب، أرسل «يوسف» فرسانه خلفهم، أعيدوهم إلى هنا، لا أريد قتل أحد، قوات القاهرة عالجت المصابين من الجيشين.

أمير الفاطميين حضر إلى خيمة «يوسف» كأسير حرب، فانتفض «يوسف»، ورحب به وأمرهم بإعادة سلاحه له.

كان وجه الأمير محتقنًا، هو لا يفهم بدقة، هل هذا الذي يحدث، أهي لعبة، أم طريقة يتسلى بها يد الله هذا، أم ماذا في الأمر؟

جلس «يوسف» يعرض على الأمير أن يعين منهم واحدًا في مجلس الحكم في القاهرة على أن يتحدوا معهم، وجددوا وعده بأن يعود الملك لأميرهم الصغير المنصور بن المعز لدين الله.

عاد الجيشان إلى القاهرة التي استقبلتهم بمهابة، الناس في الطرقات والشرفات، وقبل القاهرة بأميال يقفون صفًا؛ ليروا يد الله الذي أمن على يديه جيش معتد، وأتى وهو على رأسه، ومن يمكنه هزم الإله الذي علي الأرض.

شاع أن هناك جماعة تقول بأنه المهدي بشارة النبي محمد.

ولكن هل هذا آخر الزمان؟ حقًا.

أين المسيح الذي سيقتل؟ أين يأجوج ومأجوج الذين سيشربون طبارية؟ كان بعض الناس يسجد للجيش المار، لم يفهم أحد لم يسجدون؟ ربما شكرا للأله، ولكن أي إله؟

تزود الزوار بالزاد، وارتاحوا أسبوعين ثم عادوا إلى الشمال الأخضر لإفريقيا تاركين أميرهم في القاهرة.

كان الجفاف قد وشك على القدوم، فرفع «يوسف» الضرائب في الموسم الذي قبله، حتى يكون في بيت المال مالاً يصرف منه للناس يوم الجفاف.

التجار لم تفهمم، امتنع بعضهم، وتجمهر البعض عند القصر، مسجد القاهرة مجددًا، والناس من حوله بعد أن ملأت جنباته من الداخل، يوسف على المنبر، والضوء الساطع المنعكس من وجهه يضرب أعين الناس.

«أيها الناس! لقد قال لي علماؤنا إن الجفاف سيضرب بعد ستة أشهر، قد آخذ منكم المال اليوم؛ لأعيده لكم يوم الجفاف جمعًا، فقيركم وغنيكم سواء، الضرائب التي تدفعون لا تدخل إلى قصري، هناك بيت المال، هذا الذي صرفنا منه على المجاعة الأولى، ولا أريد أن تعود، ها أنا اليوم أمام الله وأمامكم على منبر رسول الله، أقول من امتنع عن دفع الضرائب فيطبق عليه حد الله في منع الخير على العامة، ويطرد ولن يكون له في بر مصر مكان يأوى إليه، فمن لا يتحملنا يوم العسر لا مكان له يوم اليسر، وبالله نستعين».

نزل من على منبره، وصلى الظهر خلف القاضي، وانصرف مع حرسه إلى القصر مجددًا.

في مجلس وجد «أحمد» يهرع إليه دون إذن وسط الكبار.

- أبي! إن أمي مريضة وتريدك؟

فقد «يوسف» كل بهائه وحكمته، وهرول من وسط الجميع إلى داخل قصره، «إيرينا» كانت تبلل وسادتها بعرقها، احتضنها «يوسف»،

وكانت عيناه كجمرتين من الدمع.

- ما بك حبيبتي؟ وصرخ، أين الطبيب؟

- لا داعي أبي قد أتى ويريدني أن أعود.

- لا. لا لن ترحلي من هنا أبدًا، لا لن تفارقيني.

- حبيبي! أشهد الله أني ما أحببت بشرًا قط مثلك غير ابني «أحمد». ارعاه، ولا تتركه أبدًا، ولا ترحل من هنا قبله، وإياك أن يعلم سري وسرك، لا تجعله يفقد إيمانه وعقله حبيبي!

لم تكمل «إيرينا» حديثها، كان الموت أسرع تلك المرة، الويل لك يا «يوسف»! في الأولى أهلك بدون وداع، والثانيه حبيبتك بنصف وادع.

كان «يوسف» كعود حطب، فرغ منه الماء، لا دمع، لا عرق، لا شيء، سوى نظرا ينظر إلى المكان دون تركيز، وكأنه ينظر للداخل، ينظر في ذاكرته وماضيه، الحاضر لا قيمة له الآن. اعتزل في غرفته الناس، ولم يبك سوى اليوم الثالث حين دخل عليه «أحمد»، احتضنه، وبكى، فقط بلا كلام، اختصر الحضن بينهما كل الكلمات التي تقال، قال بدموعه كل ما هو محبوس في صدره بلا لسان، حتى بكاؤه كان بلا صوت، دام الوضع أكثر من ثلاثة أشهر لا يرى فيه بشر سوى «أحمد، بالطعام، يأكلون دون كلام، ويرحل دون وداع، «أحمد» ليبقى هو أسير هذا الحزن الذي تملكه دون فرار.

* * *

الفصل الرابع

ثلاثة أشهر، والناس تسأل، والقادة تسأل، و«أحمد» بلا جواب سوى أنه بخير، ولا يريد أن يرى أحدًا، شائعة وفاته بين الناس كانت حتمية، رفعت الآن يد الله التي في الأرض، المهدي المنتظر لم يرَ فيهم الصلاح فعاد، صلوات سرية تقام في بيوت قليلة في القاهرة وخارجها من أجل بعثة المهدي من جديد.

مجلس الحكم كان في انشقاق، ويتسع كل حين، ثلاثة أشهر والجفاف قاب قوسين أو أدنى من أن يصل، والتجار سيطروا على أمراء الحكم بالمال، الاحتكار قد عاد، أعراض الجفاف ظهرت قبل مجيئه، السلع شحت، وجماعة ما في الخفاء تبث للناس رسائل أن الخير قد رفع السماء مع المهدي.

الناس بعد شهرين تجاوبت مع رسائل التي كانوا يرونها في البيوت، والدكاكين، والشوارع، من يكتب تلك الرسائل؟ لا أحد يعرف، هي من عند الله، ولم لا يقطع الله شكهم باليقين وينفذ فيهم حكمه، ويميت الظالمين؟ ومنذ متى فعل الله هذا؟ نحن هنا في اختبار. قد يرسل الله لكم إمامًا يرشدكم وقد لا يرسل، عليكم أن تنجحوا في الاختبار، كل مرة الرسائل كانت ترد على أسئلة الناس، كأنها تسمعهم، فرسان البوابات لم يمنعوا الحشود الزاحفة للصلاة

في القاهرة، وحشودا من داخلها، الجميع مروا بجوار المسجد، ولم يدخلوا، أقيمت الصلوات حول القصر الذي كان يسكن فيه يد الله.

ربما مرت ساعة أو اثنان أو دهر، وهم يصلون، ويخشعون، الدعوات تتوالى، وأصوات البكاء لا تنقطع، ويد الله في غرفته لا يعرف، ولا يريد أن يعرف شيئًا، دخل عليه «أحمد»، قص ما حدث دون إذن، اخرج الآن للناس يا أبي!

«يوسف» ما زال لا يسمع، ولا يعقل ما يقول، يسبح في ملكوت الموتى، أخذه النوم بين يدي «أحمد»، والحمى اشتعلت في جسده، هرع «أحمد» للطبيب، حمى، هي لا علاج لها اليوم، يد الله يحتضر هكذا قال الطبيب، أصوات ما تعالت في الخارج بالدعاء، الكل تأكد من موته بشكل ما من الخدم.

أحمد وحده بالغرفة، ودفقات الماء على جسد أبيه، أي قوة ورثتها يا فتى؟

أي قوة ورثتها حتى تموت عائلتك جميعها والآن أبوك بين يديك يحتضر، وأنت ما زالت بعقلك الفاني تحاول النجاة بأحدهم؟

قام يوسف من بين يديه فجأة، عاري الجسد سوى من شيء ما يداري عورته، وبجسد ينقط منه الماء، اتجه نحو مقعد «إيرينا» وظل يهمس، «أبي هل أمي هنا؟» لا يجيب وظل يهمس.

عاد إلى الإغماء على مقعدها، فهرع «أحمد» يتحسس أباه، يعلم أنه ما زال حيًا، يشعر بكل نبضة في جسده. بدأت الحمى تزول، كان الليل قد جن عليهما، والناس حول القصر ينيرون المكان بالمشاعل،

أخيرًا عاد «يوسف» للبر الشرقي من الحياة، لمملكة الأحياء عاد:

- أبي هل أنت بخير؟

- أجل. أجل يا بني! لا تقلق.

- كدت تقتلني من الخوف.

- أمير الجيوش يجب ألا يخاف يا بني!

- ماذا بك؟

- أمك يا بني! كانت مثل روحي، هذا ما يحدث عندما تفارق الروح الجسد.

- الناس بالخارج يريدونك، يصلون منذ الصباح: لتخرج لهم.

- هل يروننى من هنا إن خرجت لهم؟

- لا أظن أبي! الليل حالك بلا قمر، ربما تنبهوا لوضوء مشاعلك في الشرفة ولكن لن يروك.

- إذًا أرسل لهم من يقول لهم إنني بخير.

- حسنًا يا أبي! الآن استريح.

- لا وقت بني! اجمع لي قادة النادي هناك.

خرج «أحمد» إلى الناس، حاول تهدئتهم، ولكنهم أبوا أن يرحلوا، كلما أمرهم «أحمد» بالرحيل، اعتلى صوت حناجرهم بالهتاف على صوته، لا مانع لهم اليوم من أن يروا يد الله حيًا أي يتبركوا بجثمانه حتى، عاد «أحمد» بعد أن فشل فيما هو موكل إليه من أبيه.

فلبس رداء حربه، وقناعه، ثم اعتلى فرسه، وخرج إلى الجموع،

ساد الصمت فور ظهوره من بعيد، هتف فيهم أن يرحلوا، وأنه عفاه الله مما كان فيه، طمنهم بأنه سيرعاهم، خشعت النفوس بعد غضب، من أطعم الجوعى لن ينساهم، لا ينسى الناس قط رجلين، رجلاً أعمل فيهم السوط، ورجلا أطعمهم بعد جوع.

ويد الله كان النوع الثاني، فلن ينسى الناس أبد الدهر فضله حتى، وإن مال حكمه بعد زمن، عادوا كما أتوا عبر البوابات في ظلمات الليل، تنير مشاعلهم القاهرة وما حولها.

وعاد يوسف إلى ناديه، يبدو أن الحمى لن تتركه الليلة، جالسًا وحيدًا ينتظر «أحمد»، والقادة، التنفس يصير أصعب الآن، العرق غزير، خرج من جنبات النادي إلى الحديقة، الهواء في ليل القاهرة يداعب الأنفاس، بدأ يفكر في جدوى كل ما حدث، ماذا لو لم آت من البداية؟ ماذا لو رحلت الآن؟ «أحمد» إلى ما هو ذاهب بعدي؟

«كنت ألعب بروحي في صحراء غريب، ثم لعبت بقلبي في حب عنيد، والليلة ألعب بمصير شعب لا يدري حقًا من أنا؟».

تلك الأفكار كادت تأخذ عقله حتى سمع صوت أقدام بنيه والجند من خلفه، عاد للنادي، وعند الباب وقف يصافح كل جنوده يدًا بيد. في الداخل حول تلك الغرفة جلس الجميع في شكل مربع كبير، «يوسف» في صدره وإلى جواره «أحمد».

قال «يوسف» بصوت هادئ لكنه قوي:

«فليقص علي الآن كل منكم ما يحدث وأسباب ما يحدث حسبما يرى؟».

بدأت الكلمات في التساقط من الأفواه، رغم أن قناعه يخفي تعاريج وجهه الغاضب، إلا أن الجميع يعرف أنه غاضب، نبرة صوته وعنو أنفاسة أحيانًا أخرى، يخشى كل صاحب كلمة من كلمته، هل ستطير برأسه أم برأس الغير؟ ولكن لا مجال للخداع أو الكذب في حضرة يد الله، أغلبهم يشك أنه يعلم كل هذا، وما يسألهم إلا ليعلم مقدار الصدق فيهم، انتهت الجلسة، وأمر «يوسف» بأن يصف كل منهم جنده في هدوء وبغير جلبة في أسرع وقت هنا.

مر الوقت بين صمت «يوسف» وترقب «أحمد» بلا جدوى، اصطف الجند بين يدي يد الله، وقف على رأس كل صف، وتلا اسمًا من أسماء أمراء المجلس الحاكم بالوصاية، وحين فرغ من الصف الأخير انطلقت الجياد في القاهرة كما ينطلق الماء المنهمر بين الشقوق، دقات أقدامهم، ووقع صوت نصالهم في جرابها، بدأ يقلق السكان، ولكن من يغامر ويفتح الآن بابه أو ينظر من نافذة فيصاب بسهم؟ أهالي القاهرة متيقظين ناظرين الفجر حتى يعلموا الخبر اليقين حول ما يحدث الآن بالخارج.

رأس كل حارة بيت أمير، منهم من أتى معهم مستسلمًا؛ لأنه يعلم أن لا مفر، ومنهم من قاوم بعض المرتزقة فأصيب أو قتل في قصره، وأتى معهم جيفة رغمًا عنه، عند صلاة الفجر، لم يرَ أحد في القاهرة شيئًا، كان كل شيء قد انتهى، خرجت الناس للصلاة تلتفت فلم يتمكن أحد من إدراك ما حدث، ومع خيط الشمس الأول دقت الطبول عند سوق سعادة، السوق الغربي الكبير، احتشد الناس، هاهم أتاهم الخبر اليقين.

الأمراء مكبلون في كامل بهائهم، حريهم يلمع تحت ضوء النهار، وأعمامهم مزينة، والناس لا يعلمون ما يحدث حقًا؟ هذا مشهد لم يحدث من قبل في القاهرة، اعتاد الناس على قتل الصعاليق، واللصوص، وحتى الثائرين، ولكن قتل أمير على مرأى ومسمع من الناس.

دخل القاضي نطاق الرؤية، وعلى منصه ما نصبت في السوق، تلا على الناس أن بعض أمراء الحكم تآمروا عليهم مع التجار، وتلا اسم كل أمير، وحين ينتهي الاسم كان السيف يهوي على رأس صاحبه ليفصلها، وعند انتهاء الأضحية وقف القاضي وقال:

«إن يد الله أبا يوسف الفارسي يحذركم من أن عقاب تجويع الناس هو الموت ومصادرة الأموال والأملاك، وأنه خصص الربح للتاجر بالعشر، وثلاث أسهم على أن يحتفظ بالعشر، وضرائبنا ثلاث سهام حتى تنتهي أزمة الجفاف، ومن يضبط في مخزنه حمولة من حبوب يحتكرها عن الناس سيلقى ميتة أبشع من ميتة أمرائكم الظالمين».

نزل القاضي من على منصته وسط حرسه، وباقي الجند ينظفون آثار تلك المذبحة، طارت الأخبار بالطبول في كل صوب، عبرت سوق الحبوب الكبير جنوب القاهرة من باب زويلة إلى القطائع إلى الفسطاط، وظل الخبر يتنقل في بر مصر ونجوعها.

كبار التجار يحتقنون الآن، ولكن من يمكنه رفع صوته في حضرة يد الله، ومرت الحادثة ولكن «يوسف» يفكر لم حدثت؟ النفس البشرية تتغير باستمرار، الحق ليس حقًا دائمًا ما دام لم يكتب، الحق في صدور الرجال يتبدد من ظلام أرواحهم، لم لا نكتب الحق

حتى لا يضيع؟ ناقش في أفكاره العالمين والقاضي فرحبا، فعرضها على مجلس الحكم الذي تقلص أعضاؤه بعد مذبحة سوق سعادة، فأيد الجميع يد الله، ومن يمكن الآن أن يرفض له رأيًا، سيتهمهم الناس بالزندقة، ويحرقونهم بدعوى أنهم من الشيطان ينسلون.

عكف عليه هو و القاضي، يكتبون القواعد واجبة التنفيذ، يد الله يقول ما يقول، فيبحث القاضي عن قاعدة في الدين ويرفقها مع النص، انتهوا منه بعد شهر، وظل الخطباء في المساجد يتلونه والمنادي في كل سوق يتلوه، وينسخ ويوزع على كبار كل حارة، الحق بين أيديكم الآن، وصايا كوصايا عيسى، فلا ترتدوا بعدها خاسئين، واعلموا أن من تنازل عن حق له في مظلمة تلبسه الظلم حتى مات، ما تركه يهنأ بيوم بعد تركه الأولى.

الجفاف ضرب ضربته الموجعة، لم تكن قوية كما توقعوا بل كانت أقوى. المحاصيل تموت عطشًا في أرضها والبهائم بالكاد تسقى، أتى الفيضان بيد الله، هل سيسحبه الجفاف؟

مر الشهر الأول بلا مشاكل، الشهور التي تليه بدأت المناوشات تحدث، قتيل ما هنا بسبب كسرة خبز أو كيلة قمح أو رشة دقيق وماء.

كانت احتياطات القاهرة كفاية لما حسبوه، ولكن الأمر أعظم، شمال إفريقيا لم يرسل لهم، المدد هل هو انتقام لقتل أمرائهم؟ ولكن كان حكم الله فيهم.

يد الله يتفقد بنفسه مخازن سوق الحبوب عن بوابة زويلة، الحرس الذين معه قليلون، هو يعلم أنه لن يجد شيئًا، ولكنه يفعل

لعل وعسى يجد في مرة فيفك الأزمة بعض الوقت، أنهى ما أنهى، ويعبر باب زويلة، وفرسان ملثمون يجرون صوبه.

تجمدت شوارع السوق للحظات، استل سيفه وجنوده، فتعالت أصوات الصليل وسط صمت السوق، الجميع ساكن والبعض يغلق دكاكينه، مات أول قتيل من جند «يوسف»، سيف ما يصيب درعه، قتل هو الآخر، سيف ما يطيح بالقناع من على وجهه، توقف الهجوم للحظة لما كشف وجه يد لله للمهاجمين، توقفوا؛ لأنهم يقاتلون المهدي، أو ربما ملاكًا، الرجل لا يشيب، هو في العشرين أو أكبر قليلاً، جند «يوسف» قتلوا الفرسان الخمس في لمح البصر قبل أن يدركوا ما حدث من حولهم؟ حقًا، لم ينبههم سوى آخر معتد، فقد خر ساجدًا تحت حصان يد الله، وتبعه بعض من أهل السوق، حينها هشم الفرس ظهر أول من سجد، وطار «يوسف» صوب قصره، تتعقبه كل عين، ويسبقه الخبر، وكل حارة تضيف وتحذف، المتولي كان يقاتل معه عن زويلة، نور ما خرج بعد خلع القناع، فرسه علم من كان يقاتله وقتله دون توجيه، لو كانت القاهرة أكثر اتساعًا، وتداولت الحكاية أكثر بين أناس جدد، لنسبت له معجزات عيسى، اعتكف في غرفته مجددًا، وكان كل شيء في الخارج يدفعه للداخل، ما العمل؟، مر اليوم، ودخل «أحمد» في صباح اليوم التالي عليه، كان صامت صمت شجرة بلا أوارق في شتاء بلا ريح.

- أبي! من أي جنس أنت؟، لم يخطر ببالي أن أفكر في هذا من قبل، يوم الحمى رأيتك دون قناع، ويوم أمي دون قناع، في كل مرة لم يأتِ في خاطري أن أسأل، كان الموقف أكبر في كل مرة، ولكن كلام

الناس مريب، أظن أن هناك من يعبدك الآن من دون الله، أبي! تكلم، أنا ابنك، لي عليك حق أن تفهمني ما نحن به معًا.

صوت «أحمد» العصبي لم يقابل سوى بنظرة لوم من «يوسف»، فصمت «أحمد»، وشعر بأنه ارتكب خطأ ما في حضرة أبيه، فحرك «يوسف» شفتيه، فخرج منه صوت كان ضعيفًا ومختنقا لدرجة تكاد تسمع:

- اتركني وحدي وستعلم كل شيء في وقته.

- لن أبرح مجلسك إلا أن أعرف أبي!

- ستعرف هذا غدًا.

بعد صمت دقيقة وتقلبات عين حائرة في وجه أبيه الذي ظهر الضعف فجأة على ملامحه، وعيناه منكسرتان، وكتفه انحنى صوب الأرض كأن جبلاً ما فوقهما جاثم:

- حسنًا. أبي! أنا آسف، سأنتظرك غدًا.

خرج «أحمد»، بينما «يوسف» غارقًا في عرقه، ومختنقًا بحشرجة أنفاسه، جلس على مقعد «إيرينا»، بدأت عيناه أخيرًا تفيض بالدمع، يبكي الآن على كل ما حدث دون أن يدري لمَ يبكي، الدمع المنهمر من عينه أدماها:

«إيرينا! أعلم أنكِ هنا تسمعين، أراكِ كل ليلة على مقعدك، تعلمني العصافير بقدومك حين يزيد تغريدها حول شرفتك، طول الوقت كنتِ خائفة أن أرحل، لكنك لم تعلمين أنك يمكن أن ترحلي وتتركيني، الموت شيء ما مؤلم للأحياء، ابننا أصبح الآن يريد أن

يعرف، سأرحل، يجب أن أرحل به، جوار قبرك ما كنت لأتركك أبدًا، ولكن أنت تعلمين ما بي؟ الموت أحن على من الحياة بعدك، سأعود، سآخذ أحمد إلى حيث لن يموت، حتى تبقي حية في روحه لأنه منك» انقطع عن حديثه في نوم عميق لم يزره من قبل، شاهد «إيرينا» خلاله، وكأنه يستعيد شريط حياتهم كلها، في صباح اليوم الثاني كان أصحاب العمائم الزرقاء حول القصر، من كل صوب يصلون؛ كي يقبلهم المهدي في جيشة، من أين أتوا؟ وكيف تجمعوا؟ ولم يتعممون بعمامة يوسف الزرقاء التي صنعتها له «إيرينا» من ردائها؟ كان عددهم كبيرًا، ويدورون حول القصر كالحجيج حول الكعبة، أصوات دعائهم تصل همهمات داخل القصر، الحرس طوق المكان، تلك ليست المرة الأولى التي يأتي الناس إلى هنا لكنها مرعبة، سابقًا صلوا من أجل شفاء أميرهم ولكن اليوم هم أناس منظمون يأتون؛ لعبادة بيت أميرهم، الأمر مريب، ولكن من بيده أن يتحرك، على الجميع أن ينتظر يد الله حتى يفصل فى هذا آمرًا.

«أحمد» فى جنبات القصر يهرول إلى غرفة أبيه، يطرق الباب بشدة، حتى أيقظ أبيه النائم، دخل على أبيه، وكان صدره يعلو ويهبط، لا يعلم كيف يخبره؟

- الناس بالأسفل يحاصرون القصر.

- يحاصرونني، ماذا يريدون؟

- أن يعبدوك «قالها بنفس متهتك من الخوف، والجري، والاضطراب».

تجمدت النظرات للحظة، لو كنت حاضرًا لسمعت فيها دقات قلبيهما من الباب، هرع «يوسف» إلى شرفته، رأى الناس يلفون حول القصر، يسمع همهماتهم الخافتة، يرتجف رعبًا من الداخل، لا يفهم ما يحدث؟ أي مأزق هو فيه الآن؟ التفت إلى «أحمد» «أجمع الحرس، وسوقوا هؤلاء إلى المسجد، ولا يفلتن منكم أحدًا، ومن يرفض العدول معكم إلى المسجد اقتلوه في حينها».

الأسئلة الآن تتكاثر في عقل «أحمد»، اضطرابه الداخلي يزداد، ولكنه ليس الوقت الذي يمكنك فيه التفكير، ما دام يد الله أمر عليك التنفيذ أولا، ثم في وقت ما ستفهم لمَ أمر؟

الحرس يحاصر أصحاب العمم الزرقاء، يبدأ في جر الناس نحو المسجد، رفضوا فأعمل فيهم الجند الأسواط حتى ارتجعوا من عندهم، وتقدموا في صمت حتى المسجد، في باحة المسجد جلسوا جميعا ومن حولهم الجند، والناس خارج المسجد يتوافدون، الرسائل أخبرتهم بأن المهدي سيظهر الليلة في صورة يد الله، إذًا أصحاب العمائم هم رسل الرسائل المجهولة في المحنة الأولى.

منظرهم في المسجد غريب، لو أنك طائر لوجدت كرة عظيمة زرقاء على رخام المسجد الأبيض ومن حولها جنود بلباسهم الأحمر القاني، ويتهامس الناس عما سيحدث؟ التكنهات سريعًا ما تفوح رائحتها، وكلٌ يربطها بما لديه من قصص في عقله، «سيأتي الآن المتولي من أعلى باب زويلة» هكذا كان يتردد بخفوت بين الناس، لا أحد بصدق يعلم، ولكن تلك القصص التي انتشرت منذ يوم واحد ما زالت طازجة للتصديق.

أتى «يوسف» بدون قناع على صدر جنده في جنبات القاهرة، كان كأنه عرض عسكري، يفسح له الناس الطريق، ينظرون إلى وجهه، ويتهامسون، كان الغضب بادي على وجهه، ويمشي بفرسه في ثبات ومن خلفه عدد من الجند، الآن فقط نسي الناس المجاعة، يمكن الناس أن ينسوا أنفسهم فقط من أجل متابعة قصة ما، معركة صغيرة فى حارة، مناوشات كلامية بين جارتين في أحد أزقة الفسطاط، هكذا هم البشر يتغذون على الحكايات لا على الطعام.

أي دين ظهر في الأرض بلا حكايات وقصص، قد مات واندثر، القصص هي ما تعطي الناس أعمارها، هي ما تجعل لحياة البشر قيمة، وصل «يوسف» إلى المسجد فانشق جمع الناس كما انشق البحر لموسى، دخل عليهم المسجد، وتوجه صوب المنبر، من حاول منهم القيام زجره الحرس إلى الأرض، اعتلى المنبر، وعلى وجهه علمات الغضب، وقد دمت عينه من شدة ما به.

صمت تام داخل المسجد، وفي الخارج يتعلق بعض العامة بنوافذه؛ لينقلوا لمن بالخارج ما يحدث بالداخل، ويردوا ما يسمعون.

بدأ يضرب بقبضة سور المنبر ضربتين، وصوته الأجش بدأ يخرج من حنجرته:

«يا أيها البعير! إنى لست إلهًا ولا ابن إله، ولا ملكًا منزلاً من السماء، ما أنا إلا بشر مثلكم لا يوحى إلي، لم أبعث فيكم رسولاً، ولست من الصالحين، إنكم لأناس فاسدون، أفاكون، أفاقون، يطيب لكم أن تساقوا كالبعير من مَن قال لكم إنه يحمل سوط الإله، تعبدون القوة والسوط من دون الله، إنى أشهد أن لا إله إلا

الله وأن محمدًا رسول الله وآخر النبيين والمرسلين. ولن أبرح هذا المسجد حتى تنفضوا عن أمركم هذا وإلا أُعمل فيكم السيف بحكم الله على المرتدين وعباد الطاغوت، ولا أكف يدي عنكم حتى يقضي الله أمره».

توقف عن الكلام، صدره يعلو ويهبط، أنفاسه صارت مسموعة للقاصي والداني، لم يهمهم أحد حتى لا صوت، يحدقون في بعضهم بعضًا الآن، قام أحدهم، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وخلع عمامته وألقاها، فأفسح له الجند الطريق فخرج، فتتابع الجمع على هذا كحبات العقد المنفرط من زمامه، خرج «يوسف» إلى قصره بعد آخر فرد فيهم، عاد إلى خولته، ظل يعبث في الصندوق حتى وجد الكتابين، نظر لهما، وكأن ألمًا ما أصابه في قلبه.ماذا لو لم يكن كل هذا؟ إلى أين وصل؟ كان يحلم ببيت، ثم حلم بفتاة، ثم أتاه الملك، ثم ماذا؟

لم يتصرف الناس هكذا؟ يصنعون الحكايات حول شخص فيصدقونها، وينسجون غيرها أشد سحرًا ويصدقونها، يمجدونه حتى يصبح إلههم المنقذ، حتى لو وضع السيف على أعناقهم، لم كل هذا من البداية؟ لمَ لا نتعامل وكأننا بشر فقط؟ لمَ علينا أن نثقل رأسنا بكل هذا الهراء؟

عاش الملك أم مات، ما قيمة حياته وحياتك؟ لحظات حتى دخل «أحمد» الغرفة:

- أطلبتني أبي!

- نعم بني! أمس كنت تريد إجابة، الآن لك الإجابة،

وضع كتابًا في يده، فتحه «أحمد»، وظهرت على وجهه علامات الانبهار وعدم الفهم:

- ما هذا؟ وما تلك اللغة؟

- صدقني لا أعلم، ولكن هذا ما أتى بي إلا هنا.

- أبي أفهمني أرجوك، إن عقلي يكاد ينفجر، صرت لا أعرف من أنا؟

- أنت أحمد بن يوسف، لست من فارس، أنا من القاهرة، ولكن ليست تلك القاهرة، أتيت من زمن آخر، من قوم ما سيأتون بعدكم بألف عام.

- أبي ماذا تقول؟ لم أعد صغيرًا لتلك الحكايات.

- إذا أردت الحقيقة عليك أن تستمع لها بقلبك بني! دعني أنهي، ولك أن تتحدث في النهاية.

- آسف أبي! أكمل حديثك.

- كنت شابًا عاديًا جدًا، أخرج في رحلة مع صديق عمري كنت في مثل سنك الآن، وجدت كتابًا مثل الذي بيدك الآن، قرأت ما فيه فوجدتني أمام أمك هنا، اتضح أنها كذلك كانت تقرأ الكتاب، نوعًا ما من السحر العجيب، وقعت في حبها، وقررت أن أعيش معها هنا، لأنني كنت بلا عائلة، فقررت أن تكون هي عائلتي وكانت، حيث كانت كل ما أتمنى وأملك، حين أتيت لها كان جدك قد مات، وكانت تعاني من ظروف ما في قريتها بالفيوم، رحلنا عبر الصحراء الشاهقة

إلى قرية الجيبتيين عند الهضبة على النيل، ساعدونا، وحين علموا بقصتنا قالوا إنني ملكهم المنتظر أيضًا، وإني مذكور في كتابهم، لم أصدق، ربما صدفة أهدوني ذلك الخاتم الذي بين يدي، ساعدونا كثيرًا، حتى وصلنا إلى خالك الحاج «صالح» رحمه الله، عاملني كوالد وعلمني صنع السيوف ومبادئ المبارزة، و«دبجن» زعيم قرية الجبتيين أكمل تدريبي، كنت أنت حينها ما زلت لم تولد بعد، لكنك كنت قد تكونت في بطن أمك ترهقها أغلب الوقت، وفي يوم ما حدثت حادثة نهب في السوق من حراس الإمام، وكز جندي أمك وأنت سقط من يدها، حينها لم أشعر إلا ورأس هذا الجندي على الأرض بعيدة عن جسده، كنت سألقى مصيري إلى السياف ولكن أعجب بقوتي قائد الحرس، وقرر الإمام العفو عني وتعييني معهم في الحرس، كنت أدربهم وعملت بإخلاص حتى حدث ما حدث أمام عينك منذ النشأة الأولى إلى تلك الجامعة بالخارج التي تريد أن تنصبني إلهًا بالكذب، أعلم أنك تعتقد اليوم أني خرفت، أو أني أكذب، لكن الأمر لك، تريد أن ترحل معي إلى هناك أم تبقى هنا وحدك، وتقول إنني قد مت، لو أتيت معي لن يصيبك كبر مثلما لم يصيبني هنا، هذا مجهد ومقلق في عاملي، ولكنهم قد يجدون لك تفسيرًا علميًا للأمر، خذ قرارك بني!

كان «أحمد» صامتًا، ملامحه حائرة، ويتصبب عرقًا، من يدري ما يصبو إليه أبوه؟ كلامه يبدو خبلاً ولكن وجهه الذي لا يشيخ أيضًا يبدو خبلاً.

لا يعلم ما يفعل، ولكن هل هو قادر على ترك أبيه، لا أظن أن

هناك شخص قد يختار أن يخسر كل عائلته مقابل أي شيء، تحدث بانهماك «أنا رهن إشارتك أبي!».

وقد عزم «يوسف» على الرحيل، لملموا شتات ذكرياتهم في صناديق حتى صندوق «إيرينا» لم يتركوه، وجلسوا في الغرفة مربعين على الأرض واضعين كل صناديقهم في لفة كبيرة صنعوها من ستائر شرفة «إيرينا» الكبيرة، ومشتبكين الأيدي، وبدأ «يوسف» في التلاوة، تلك الحروف التي مر زمن على آخر مرة قرأها فيها، ساد الظلام مجددًا وحين عاد الضوء كانت غرفة يوسف بإضاءتها الخافتة، وآخر كوب شاي ما زال ينفس الدخان بعد، كان «أحمد» متوهمًا مما يحدث، ذلك الشعور الذي راود أبيه من قبل:

- أبى أين نحن؟

- نحن بعد ألف عام مما كنا.

- لم أكن أصدق أن هذا ممكن؟

- أنت هنا الآن، علينا فك تلك الأشياء والراحة أولا، أنا أشعر بإعياء.

- لدي ألم في رأسي، أنا أيضًا.

- هذا طبيعي، سيزول بعد النوم، أريد تذكيرك بأنك لا تنتمي إلى هنا، إن وجدت كل الطرق مسدودة أو سيمسك شر حاول قراءة الكتاب مجددًا سيعيدك حيث كنت في لحظة المجيء، واعلم أنه ربما هنا ستكون مثلي، لا يمسسك أي عجز أو شيب هنا.

- حسنًا يا أبى! ولكن ألم رأسي يزداد.

تذكر هو أنه يملك أدوية، نعم لقد عاد إلى حيث هناك حلول لأغلب المشاكل، ظل يحاول أن يستجمع ذاكرته، ويقرأ كل علبة دواء، حتى حصل عليه، علبة منوم متوسط المفعول، أخذ قرصين، وذهبا في ثبات عميق.

لم يوقظهما منه سوى صوت الرعد، أصوات تشبه صوت الرعد مع صوت عظيم لزحام، هرع «أحمد» من نومه، اعتاد أن هذا الصوت يجني الأرواح، فأي روح ستجني اليوم.

تذكر «يوسف» أن اليوم هو يوم الاحتجاج، «مصطفى» أسفل بيته تقريبًا حيث مسجد الخازندار.

لم يتذكر جيدًا كيف يشعل هاتفه؟ لم يستطع أن يفعل، طلب من «أحمد» أن لا ينظر من النافذة أو يخرج، هو قادم بعد قليل، هرع من باب شقته، نسي أنه لا يزال في زيه السلطاني، وعمامته الزرقاء التي صنعت من ثوب «إيرينا»، ولج للشارع بسرعة، لمح «مصطفى» في مقدمة الصفوف، محال أن يسمعه من صوت النار، جرى نحوه بعرض الشارع، كان قاب قوسين أو أدنى منه، لمحه «مصطفى» فجرى عليه.

فتحت الأيدي، وسقط «يوسف» في حضن «مصطفى» بعد أن سكنت طلقة ما ظهره، أنفاسه بدأت تتهتك، سحبه «مصطفى»، وفرد آخر إلى المسجد، قل بصوت لا يكاد يسمع، «أحمد» في الشقة، ابني

في الشقة يا «مصطفى»! حمله «مصطفى» على كتفه بمعاونة الآخر حاول أن يجري إلى الصيدلية القريبة، لكن روح «يوسف» كانت أسرع، لقد رحل، رحل الفتى من عالمه كما رحل من عالم «إيرينا»، هل الحب هو السحر الحقيقي الذى يحيمنا؟ عقل «مصطفى» بالكاد يعمل، طلع به إلى شقته، طرقات على الباب، لم يفتح «أحمد» قال له يد الله أن لا حراك، وضع «مصطفى» الجثمان على السلم، وظل يضرب الباب في جنون،

الأدرنالين الآن في أعلى معدلاته في الدم، العضلات انتفخت، والرئة اتسعت لمزيد من الهواء، قوته تزداد على الباب الذي بدأ يهتز بقوة حتى خرج اللسان من مكانه، كسر الباب، جرجر جسمان صديقة إلى الصالة، خرج «أحمد» من غرفته، وجد أباه والدم قد لوث ثيابه، أدرك أنه الفراق، بهذه السرعة هو الفراق، وقف «أحمد» حاملاً الكتاب عند رأس أبيه، جهازه العصبي لا يخبره بشيء، لا يعمل، ملامحه شديدة الشبه بأبيه، يبكي بلا دموع، ينظر للجثمان ولا يدري، هل سيقوم يد الله من الموت؟ يحتاج الآن أن يؤمن بأنه المهدي حتى يعود.

الأمر لم يدم، أصوات أقدام تتدافع على السلم، العدد كبير، هناك من رأى «يوسف» يموت في المسجد، الأصوات تقترب، بعضهم في قمصانهم والآخرين في جلاليب حمراء قانية، أين رأيت هذا اللون من قبل؟ دخلوا إلى الباب بغير إذن، تدافعوا إلى الداخل حتى أحاطوا الجثمان، لو أنك هنا، لرأيت جسمانًا لشخص ما مقتول وما زال يقف.

الاختلافات بين «يوسف» و«أحمد» لم تكن بادية لتلك الدرجة، الصمت خيم على كل شيء، «مصطفى» لا يعرف.

أحمد لا يفهم،

خر الجميع ساجدًا بين يدي «أحمد» عند جسمان «يوسف»، مرددين، يد الله قام! يد الله قام!

تمت

لكن هناك دائمًا بدايات جديدة